

مهرجان القراءة للجميع



الأعمال

الإبداعية

ابراهيم عيسى

صار عيداً

www.liilas.com

florist



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب



صا ربعبدا

www.liilas.com

منتديات ليلاس

ابراهيم عيسى



مقدمة

وهكذا نضمن مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم في عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر في مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التي صدرت خلال الأعوام الثلاث الماضية لتغطي مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبي والفكري والإبداعي والعلمي، وأن مصر على مر التاريخ هي بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقورية في المكان وعبقرية الإبداع في كل زمان.

سوزان مبارك



مهرجان القراءة للجميع ٩٧ مكتبة الأسرة برعاية السيدة سوزان مبارك (الاعمال الإبداعية)

صار بعيداً
إبراهيم عيسى

لوحة الغلاف :
للغنان جمال قطب

تصميم الغلاف

الإشراف الفني:

للغنان محمود الهندي

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سهيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر
الواعد تقدم صفحات مثالقة من متعة الإبداع
ونور المعرفة مصدر القوة في عالم اليوم..
صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا
الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان

قول للغريب
حضنك هنا
دربك قريب
من دربنا
بيتك هنا
أهلك هنا
حزن البشر
دا حزننا

بكرة القلوب تفتح لنا

« عبد الرحيم منصور »



السفر

الليلة نفسها والسفر ذاته

هبط أبى من السرير إلى السجادة المفروشة على أرض غرفة النوم ..
كانت الفوضى مهيمنة على لجام الأشياء المبعثرة ..

الحقيقية بنية اللون مفتوحة الجوف تتدلى منها الأحزمة المنتهية بحلقات
من المعدن وأسم أبى مكتوباً بخطه المنسق الجميل متضخم الحجم ،
أسمه وعنوان منزلنا وجمهورية مصر العربية حيث يحرص دائماً على
التعامل مع الوطن تعاملأ أمينأ دقيقأ مخلصأ حتى فى فرد أسمه الثلاثى
على بطاقات الحقائق وأطرف الخطابات وحواره عن الخلافات السياسية
بين الاقطار الشقيقة ، . الحقيقية تتسع الآن لكفه يمسك بلفافه محبوكة
الغلق ، يضعها بأصابعه الخمرية المشوبة بحمرة خجل وبنية رقيقة ، ثم
يرفع اللفافة مرة أخرى مسرعأ وهو يزفر فى حدة جلسته المتعبة ، أفترض
فيها وسادة مستديرة غير محكمة الغطاء الأبيض الذى تكرمش تحتها ،
يعلن تدمره من كل هذه الحاجات واللفائف التى أودعها عنده أهل
رفاقه فى الغربية - المدرسة والمدينة والسكن - حتى يوصلها إليهم هناك ،
كليوات من الشيكولاته وأخرى من الجبن وغضب جداً من علبة مسئل

بلدى إلى زميل شاب في مدرسته وضرب كفه على فخذة مذهولاً من
سخف الموقف وضيق الأفق ويخاطب أمى في رفق - تصورى .. يرسلون
معى كيلو مغات وثمرتين من اللوف .

أمى التى تيمنت أبى وجلست نصفها على الأرض العارية (تتجاهل
الإحساس بالبرودة تماماً) ونصفها على السجادة ترفع كفيها للسماء وهى
تتهجد بحرارة فيها من التعب والغربة وآلم الفراق مافيهـا .

- ألم أقل لك أرفض .. هل فرضوا عليك أن تأخذ هذه الأشياء
معك؟ .. أنت تريد مجاملة الناس وتتحمل ما يحدث .. هى عادتك أم
ستشترىها !

ملاح أمى تتخذ طريقاً مستقيماً للسكون والهدوء ويبتسم ويقترب
برأسه حتى كتف أمى ويضع كفه على ظهرها أسفل عنقها بدقة ويمسح
حجاب شعرها الشفاف الذى لم تضعه جانباً بعد انتهاء صلاتها و«لمة»
سجادة الصلاة على حافة السرير .

- أهو ، نحن نعمل الخير وربنا يضع لنا دائماً أولاد الحلال في طريقنا .
تؤكد أمى حروفها .

- هذا ما نأخذه كل سنة .

الحاجات كلها متناثرة على الأرض بجوار السرير تحت قوائم
الصوان، أسفل التريجة ملتصقة بالبوفية ، العلب الكرتونية ، اللفائف ،

أكياس ورقية ، أكياس بلاستيك محشوة ملابس مطوية بعناية يعيد أبى
بعضها إلى الحقيبة ، ثم يرفعها مرة أخرى حين تسد أحلام استيعاب
الحقيبة لكل هذه الحاجيات ، كان أبى مصراً على التعامل مع حقيبة
واحدة حتى لايشغل نفسه في الرحلة بالحمولة الثقيلة وتعدد الحقائب
واللهث وراء الوزن والتفتيش والبحث عن سيارة من المطار ثم إن أبى
رجل دقيق حتى الوسوسة من تأخره عن موعد الطائرة (أو القطار حتى)
قلق على الدوام من إمكانية العثور السهل على سيارة أجرة ، متوجس من
تساهل موظفى المطارات أمام حقيته ولهذا فهو دون أن يدرك أو ندرك -
يراجع جميع أوراقه ومستنداته عشر مرات قبل السفر وعشرات المرات في
انتقاله نحو المطار ، يفتح الحقيبة الصغيرة المخصصة لأوراقه ، وكأنه لن
يجدها يفتش عنها كأنه لم يرها منذ دقائق ، يطمئن على تمام أحواله
واستكمال أوراقه حتى يجد نفسه أمام منفذ استطلاع الورق ونافذة ختم
المستندات وبوابة العبور إلى الطائرة ، لم أركب معه الطائرة ، إلا إننى
أظن أنه يعيد التهام عليها خشية الفقد بعد الركوب وقبل الهبوط وحين
تقديمها .

يملا أبى الحقيبة بكل الأشياء ، يعبئها بحرص ودأب ويحشرها في
استنفار لكل المساحات وعداء للفراغ مؤكداً ثم يسحب الحزام من
جانبي الحقيبة الداخلين ويشدها بعزم ويشبك الحلقتين للأحكام ،
يغطي الحقيبة ويمسك بالحزامين الخارجيين ويجذبهما في قوة حتى يتأكد
من تماس الأطراف بالأطراف ، ينتهى من اغلاق الحقيبة فينهض على

ركبته ثم على قدميه فتسقط صحيفة الأهرام التي كانت مستندة على فخذه منذ ساعتها على الأرض فيلتقطها حتى لاتضيع بين قدميه والحقيقية ، ويضعها على حافة السرير ، ويمسك الحقيقية بأصابعه من مقبضها الغليظ المبطن بالمعدن والمغطى بطبقات من الجلد المتين وتبدأ أصابعه التي اشتد إحمرارها وثنيات المقبض على أنامله تبدأ في استئثار وزنها وتقلها ، ثم يصيح لصراخه بالانطلاق المنضبط .

- يا خبر اسود .. ستزن أربعين كيلو .

تفرغ أمي بحسم قاطع .

- خلاص كما قلت لك .. رجع الحاجات لأصحابها (وصول الحاجات لأصحابها مقدس لايجب مساسه عند أمي فيهتف) .

- طيب إسكتي والنبي لاداعى لإفساد الثواب بالكلام .

آه .. معدودة وموزونة ومرجوعة وحارة ومشروخة ومصابة بالحية جداً .

- الحقوا انخلعت يد الحقيقة .. هل تنقصنا هذه المشاكل ؟

نفوس تقليدية رصينة تزين أبواب «الصوان» الشامخ منذ ثلاثين عاماً حين وقف أمامه أمي ، كان الضوء الواصل إلى رسوم الضلف نجلاً وخائياً ، وزود وزهور بالوان بنفسجية فيها خلود الفراعنة دون الفناء وخضار في ورق يخرج من أغصان ملتوية متشابكة تتمدد على مساحة من الخشب المطلى بإحساس كاكي وخلفية طحينية غبراء في

الزمن ، هذا الصوان يفخر به أبي دائماً ، حين دخلت معه ذات مرة إلى منزل اختفت أية صلة له بدماغى فيما عدا أشجار سلبية الأوراق وعتمة بغيشة غروب متواطئة مع الليل القادم ، ونور مضطجع قادم من ردهة تنهى صعود السلام الضيقة ، ومازال وجه الرجل ضخم الميكل بملامح مخفية في ثنايا ماض بعيد مرتبك في حواف عقل ، أكد أبي على أنه فنان عظيم وصانع ماهر ، كنا الآن في باحة ممتدة فسيحة فيها ألواح وقواطع من أنواع متعددة من خشب خام ورؤوس مساند أسرة وأبواب صوان معدة للتركيب ونشارة خشب تكتظ بها الجوانب .

كان الرجل ذى صلة دم وقربى وكان صاحب الصوان نفسه الذى تردد في مناسبات شتى التذكير بالرحمة عليه والدعاء له من أبي في معرض الفخر بخلود الصوان وصموده أمام عتو الدهر الذى جعل من الصوان الحديد لغرفتنا تحفة في الانخلاع والتفكك الدورى كلما عن لأخواتى أن يُنفسن عن غضبهن بدفعة أو بعنف فتحه ، فتساقط الأضلفة والمسامير تتفكك يصعد أمي فوق مقعد خشبي وتبسط كفاه من سطح الصوان بحقية كبيرة رصاصية اللون جلبها منذ عام حجه مع أمي .

- ياه هل تذكرين يوم اشتريناها من المحل في المدينة المنورة والله تحملت وواضح متانة صناعتها وليست مثل الحقيقية الأخرى الهزيلة .. أليس كذلك يا حاجة الجملة الأخيرة على بخار حب وتدلليل ورغم أن أمي حجت مع أبي منذ ثلاثة أعوام إلا أن أحداً منا أو من أخوالى أو

جيراننا لا يتناديها - ربما لصغر سنهما - يا حاجة فيها عدا أبي الذي يصر على نذاتها والكلام معها وعنهما مستخدماً القلب ، الأمر الذي يجعلنا أحياناً نستفسر منه عمن يقصد بالحاجة فيندهش غرابة السؤال وتوهه العقل وفقدان التركيز .. ، الحاجة .. وبعدين ! فتعرف .

كانت ليلة سفرهما إلى الحجاز أجمل لحظات حياتهما على وجه الإطلاق ، الفرح الطهور والبسمة المرأة والعيون المزغردة وردائهما الأبيض الناصع الذي ذهبا لأجله إلى المحلة الكبرى فأشترى ملابس الإحرام جلابيب بيضاء ورداءات أمي الناصعة وكانت حريصة على تغليب الملابس ودعوة الأخوة والأقارب إلى مشاهدة الثياب وجربا الملابس في تأهب وإستعداد قبيل السفر ، وكان أبي يشوشاً ، أكثر من عادته ، طلوفاً بالبهجة يربت الكتف ويداعب الأطفال ويخفف التوترات ويخنو على الغاضب ويستمهل المتعجل ويغري الزاهد للإلتحام في الفرح ويعرب عن بلاغة آية قرآنية حين تمس أذنه يعزف عن متابعة الحلقات التليفزيونية ويكرس الوقت كله لقراءة وتلاوة القرآن في مصحفه البني الصغير (استبد له بعد العودة من الحج بمصحف يوزعونه على الحجاج هناك) ومداعبة أمي ، زاد فرحه واندثر همه وذاب كربه حين تمكن أخيراً من مصاحبتهما له في الحج بعد عراقيل عدة غصت همته وعثرت فرحه حتى الأيام الأخيرة للسفر ، حيث ذهبنا معاً إلى شركة الطيران مستهدين بـ بخبرتي في شوارع وسط المدينة لكنني تهت معه ثم وجدنا المقر قدخلناه فاستبشر بأنافة المكان وحسن نظامه ولكنه - لما وقف أمام موظفة الشركة

- استوحش التعامل الرسمي وبرودة الموظفة التي لم تدرك عن حلم حجه ومصاحبة زوجته شيئاً فأمسكت جواز سفره والتذاكر في ثلجية لزجة ورأيت لحظتها دموعاً تحفر شارعها في عيون أبي والتهام دعاءات متهدجة لله أن يتم الأمر ويزيل العقبة لتأشيرات الدخول وزحام الحج وإستبدال التذاكر وعقد لم نعد - تحديداً - نتذكرها ، وحين وقفنا في المطار نودعهما كل العائلة أنا وأخوتي الأربعة وقفنا في صف مستقيم وأكتافنا في الأكتاف مع إختلاف الطول والقصر وكان أبي وأمي في ثيابهما البيض وفرحتهما اللامعة ونورانية فذة تكسو ملامح المكان بأسره وتلوح لهما بالأصابع وللمرة الأولى في سلسلة طولها سبعون ذراعاً من أحزان الوداع وسلامات الفرقة وأحضان الغربة والمسافات الفاصلة بيتنا وبين أبي حين يتمم اجراءاته ويدخل إلى مالا نستطيع الدخول معه إليه ، لأول مرة أراه يضحك ويبتسم جداً في موقف كهذا متأبطاً ذراعه أمي ونحن ضاحكين باسمين ندرك ببساطة تعجز عن البيان أن الله سيفقر لها بمجرد أن تغطا الأقدام حدود مكة .

وعدنا بالإحساس ذاته إلى المنزل حيث كانت الأسرة الكبيرة الجدة والعمة والحالات والحلان والأطفال يسعون في أرجاء المنزل الواسع في الق وبشر .

ها هي عمتي تدخل في تودده يفرضها عشرون نوعاً من الأدوية ، تتعاطاها لعلاج أمراض متكاثرة يمكن حصرها بفرض علب الأدوية من كيس بلاستيكي محشو بها يخرج معها أينما كانت ، نفس حال جدتي

التي لا تترك الكيس أبداً وتترك في ذلكاء مواقف كل دواء ولونه وشكل حروفه الإنجليزية والرسم الخاص بالشركة المنتجة وتطورات سعره وموضع ندرته في السوق من وفرة ، كلفتها بوزن ثقيل ومرضى أثقل وخطو وثيد وحزن مصفى وتحلق في فراغ ودموع في مأوى وعرشة في صوب ودعاء في غزارة وتربع على أريكة أو راحة على سجادة تنتظران والذي حتى يخرج ببدلة الكاملة وحقيته السوداء قبل الركوب في السيارة والسفر إلى المطار .

رغم الضجيج الحادث من تدافع الأطفال نحو جدة وجمعة (هي جدة لأخريين بدورها) إلا أن رائحة الإكتئاب تحلق في سماء المنزل القسيح فسحة نهر ينتظر إيزيس أو صياد مؤمن بأهمية النيل ، الإكتئاب واسع مستشري في أجواء المكان ، يركض بين الفلوب والجوانح ، يدفن رأسه في الحنايا وينحشر في العيون ، شيء يسحب الهواء من الأمكنة ويطلق غازاً خفياً عصبياً يمرر ذراته في الأنوف والأذان والأنامل والشفاه العليا للصامتين ، السفلى للمتكلمين ، فيبدو البيت الذي لا يتوقف عن الزعيق والصراخ والمناقشات والحكايات وسرد الوقائع وتنظير المشاكل الصغيرة ، يبدو في غمرة الاكتئاب محزوناً خالياً على ناسه منسياً في عناوين الفرع ، أمكنته القبل القادمة مع أصدقاء أبي يتحاورون في غرفة استقبال يستأذنون فيقبلون الوجبات ويحضنون الصدر ويثمنون لأبي مفرراً موفقاً وعوداً حميداً واختصاراً لشقاء الغربة وإستكمالاً لغاية الاغتراب يودعهم أبي وتخلو الغرفة إلا من أثاثها وأمي مستندة على

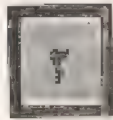
تليفزيون قديم من طراز يجعله تحفة خيالية لا شيء فيه إلا الخيال يضغط أبي على زر الكهرياء فتتطفى نصف مصابيح الثريا ثم يتبعه فيعود ليضغط على الزر الآخر فتتطفى الأنوار ويغلق الباب .

في الصلاة غالباً يستقبل المودعين من عائلات الأنساب زوج أختي وخطيب الأخرى مصطحبين بقية أفراد عائلة كل منهما ، بطيئتهم وعذوبة أخلاقهم ووداعة لقياءهم ووداعهم ويندمج البيت في استقبال الأقارب القادمين من البلدة بجلاليب مختلفة ألوانها ولكن الأكف خشنة كلها سمراء مندفعة والعناق من هناك حار حاد .

ومنذ اشترى ابن عمي (والذي رباه أبي منذ صغره في منزله فنشأ أختاً أكبر لنا جميعاً وابناً أكبر له) منذ اشترى سيارته وهو يتولى مهمة اصطحابنا لإستقبال أبي من المطار ووداعه وكان قبلها ، معنا ، نذهب للاتفاق مع سائق سيارة أجرة تسع سبعة ركاب ونؤكد على الموعد ونركب مع أبي أنا وأمي وأختي الصغير وابن عمنا وبعض أقاربنا ثم تناقصت الأعداد مع طول المدة وتكرار الرحلة حتى لم يعد سوى أنا وأمي وأختي وابن عمنا وكان السفر الليل أسوأ ما أعرفه عن الغربة حين كان المطر غير رحيم يعصف بالمدينة والليل قليم شرس والوحشة تنفجر في كل متر تعبده السيارة نحو طريق رملي تلفة منه إلى ساحة صغيرة فيها منزل رفيق لأبي في أول سفر لها ، وكنا فرحنا بوجود صاحب مشقة ونعاسة الرحلة الجوية الأولى للغربة لذا اتفقنا على السفر معاً من المدينة للمطار وكان المطر ثالث اثنين في رحلتها ، انتظرنا الرجل حتى

هبوطه إلينا بحقيقته والمطر يغزل حزننا وإبهار الدعوى من المآلى
واستقرار لقراع هادر فى صدورنا ونظرات تائهة وتمنيات شائبة ، والزجاج
محكم الغلق واللبل محكم الظلمة والضوء الذى يرسله مصباح السيارة
ملقى على الطريق يكشف فقط متراً أو مثله أمام بيت الرجل الذى بدا
الآن مع زوجته تحت مظلة تحملها له وحقيقته بين كفيه وأمام ساقبه
تشاركان فى دفعها لثقلها خلف السيارة يرفع السائق معه الحقيبة فنسفع
من الباب الخلفى الحقيبة السيارة المفتوحة طلاقات المطر تضرب فى
الأرض وهمهمات الزوجة المودعة وظل الحزن أمام شعاع ضوء السيارة .

انتهى أبى من تعبته الحقيبة ثم قام لإختبارها ثم لم يطمئن إلا عندما
جرب أن يزنها على ميزان للبشر جلبه من سفر سابق له وعندما خرج من
الفرقة كان كل شيء مؤهلاً للتكرار ، ليلة السفر ، الليلة نفسها والسفر
ذاته .



الفرح

مبروك يا قمر

كلما انحطوت تعثرت فتوقفت

الأجسام مندبجة الأعضاء ، مدوية الحجم ، مستلقية على الأرض فوق
السجاد المقروش ، فوق الأرائك الموزعة ، أسفل مائدة طويلة بين زحام
مقاعد ، باتت أذرع وانكشفت سيقان ، تكورت ظهور وتقلصت أقدام ،
ارتفع صوت شخر من الأنوف وأنفاء مفتوحة ورؤوس مستندة على
وسائد مصنوعة من نكوم أقمشة أو حزمة ملايس أو مساند أرائك
سميكة غليظة .

نأوهات وتقلبات وانفلاتات وشخار وأصوات مبهمة ورائحة نوم
ثقيل دافئ يسبح في الأمكنة كلها داخل المنزل الفسيح الرحب الذي
احتوى حشد الأجساد في هذه الليلة المفتوحة أمام الحنين .

منزلنا واسع المساحة تمتد الفراغ إلى الحد الذي علمنا فيه شئين ،
الإحساس الملح بالبرودة والصراخ المستعر ، وبرودته تنخر العظم وتفتت
حرارة الأبدان وتعيث في إستفراغ الدم ورغم أن الجو في خارج جدرانها أو
على سطحه يكون دافئاً أو برودته عند حد الكفاف إلا أن منزلنا يعنى برداً

حقيقياً وغوراً عميقاً في البدن يربح وهمة فتتحول جميعاً إلى أكف أمام دفاية ترسل ضوءاً أحمر مشعاً بحرارة عليها تبدد ما يمكن أن تبدده من وجع البرودة ، أو أخوة ملقوفين في أغطية ولعن دؤوب للبرد واختراعات متجددة لجلب الدفء . أما الصراخ المستمر ربما يأتي من بعد المسافة بين غرفة وأخرى تستلزم صرخة على شقيق أصغر أن يأتي فلا يسمع فنكرر فلا يسمع فنصرخ ، ذلك أن المشي حتى مكانه بضميع وقتاً ويذهب الحاجة فناء ، أو الأم تنادي ابنتها في المطبخ فتتهف عليها ولا يجيب ثم تطور الصراخ من عصبية وتوتر إلى طبع مستأبد في البكيان وزعيق عادي فتنادي بعضاً بالصراخ ونضحك مع بعض بالزحيق ونعاتب أنفسنا بالخفاف ونحكي قصصنا بالصوت العالي ونشاجر قطعاً بالصراخ .

وقد أصابت العدوى كل أجهزة البيت فالثلاجة ذات صوت موتور غليظ يقطع أية محاولة للهدوء والغسالة آلة حادة لها هدير مدو يعصف بالسكون يلقينا بالصداخ في اليوم المخصص للغسيل ، والتلفزيون لا يكف أبداً عن صوته المرتفع حتى أصوات تغاريد العصافير المزدحمة فوق أغصان أشجار حديقتنا تتشابه في صوت واحد يكفي لتحويل تغريدنا إلى تحيب أو شجار خرافي .

لكن كل هذا الصراخ الطبيعي المعتاد كان مخافناً شيئاً مع وفود عشرات الأقارب والأحبة في هذه الليلة ، ليلة فرح الأخت الكبيرة التي دفعت العمر كله للتكاتف في المائة والسبعين متراً مساحة منزلنا ، في كل

قطعة فراغ هنا بعض من الأهل وقدوم من الماضي وإشراق من أفق بعيد وإقتراب لبعاد ودنو لمرحّل كما يصير البرد متقيماً تماماً مع أنفاس الناس والتكديرات ، وملامح الوجوه المحملة بالحلب المفروشة بالأمانى الملونة بالصدق الشقيف لا يحجب الحقيقة ولا يخفيها .

كلما خطوت تعثرت في ساق محدودة من أسفل أريكة أو كف مفردة فوق مقعد أو جسد متقلب يحوى داخله جسداً صغيراً لطفل يغطس في أحلامه ، تتحاشى قدمي الضغط على جسد أو دوس طرف فأتحمس بنظري الضعيف مساحة فراغ أو مسافة فاصلة بين جسدين ، أمر عابراً الصالة التي كسيت بالأغطية والمفارش والأجساد المبعثرة والأصوات الناعمة وفراخ الدفء ، من غرفة الجلوس تبدو أجساد أخرى تنام على السجادة ملتحفة بغطاء خفيف لا يكفي احتواء الأطراف كلها (على قصرها) وفوق الأريكة ينام عضو هام في عائلة تتوسد الأرض ، وفي غرفتي عدد من شباب القادمين ، ينامون متقابلين على السرير حتى يتسع لهم وقد وضعت ملابسهم الموثقة خصيصاً ولقائهم فوق المكتب وعلى المقاعد وظهروا جميعاً بملابس نوم لي ولأبي فطالت على واحد وقصرت على كثيرين وبانت طرافتها عليهم جميعاً وهم يخوضون نوماً متعباً من السفر أما الغرفة الكبيرة لأخواني فقد امتلأت عن آخرها بمن وميدات العائلة وقد نمن متأخراً جداً بعد ثرثرة تنازعت شفاههن نزاعاً طويلاً من الليل ، حكين فيها من فوق الأسرة المتقابلة وبضحكات مكتومة ثم رنانة ، قصص شهور مضت ونوادير سنين فانت ثم انفردت

أحدهم بأختي تتناوبان أسئلة وأجوبة عن الحال فيم قضاؤه والإحساس ما طعمه والرؤى ما شكلها ، والمستقبل أى ألوانه ثم يأخذها الضعف والنوم إلى أجازة مؤقتة عن الحكايا والأسئلة .

أما غرفة أبى فلا يمسها أحد ولا يقربها سواء وأمى وفيها سهر طويل وانشغال مقيم بالغد وترتيب فاتق من الأم عن احتياجات الإمداد بالطعام والغطاء وأمكنة النوم ومدد الإقامة ووسائل الهدايا وطرق الانتقال لكان إقامة الفرح وعن الذين سيأتون من القرية ظهيرة عند كتب الكتاب وعقد القران ، فهم الوفد الثانى الذى لا يبيت لقرب المسافة وتوفر المواصلة السريعة .

والنوم المستخف بزحام محيط هو ما أحسه بعد ساعة من تقلب رأسى في عوارقات السعادة والحزن الداخلى وعن دقائق متعجلة منضبطة (..) لذكرى عاطفية وحلم عذب ، أعلم أنه عند الصبح إذا بالمكان سيكون خلية لحل وسعى نعل ، الوجوه كلها في توهج الصباح وألقى اللقاء، من الاسكندرية جاءت عمى وعمى ومنها أيضاً بنات عمى بأطفالهن يتدافعون ويلعبون ويضربون الآخرين ويلتقون بوجوه يعرفونها من سابق الزيارات المتبادلة فيستأنفون لعباً لم يتم وشجاراً لم يكمل بفوز ويصحب الزوجات أزواجهن يتعاملون بركة أمانة وتقرب أليف ويتفق أحدهم مع خالى في مزاح تدخين الشيشة فيجلبها خالى إلى شرفة منزلنا ويضعها على مساحة من البلاط ثم يغير ماءها ويضبط عود الغاب بها ثم يحرق فحماً في إناء صفيحى قديم كدسه بالتراب الذى أسود بالنار ثم يرضى الممس

بعد فضه من ورق أبيض في حلبة كرتونية خضراء رسمت عليها رسوم بدائية ويضبط الشيشة في عشق ثم يسحب أنفاساً من الدخان يخرجها من أنفه وفمه ثم يضرب على صدره في صوت متضخم تمثل عظمة المهابيك قافلاً :

- صحة وعافية يا راجل يا صبح .

وأطفال العائلة كلهم يتابعون تحركاته ويقربون من ناره ودخانها في فضول شيق وأخواتى والبنات يتابعن في ضحك وسخرية أحداثاً شديدة الموسمية في منزلنا ويأخذ خالى بين أصابعه عود الغاب يمسحه بطن كفه ويقدمه إلى زوج بنت عمى الذى يتسلمه ضاحكاً شاكراً ممنناً فيضعها في فيه ويدخن وقد سر فعلاً من تعاملنا مع هذا الطقس العادى بشئ من الدهشة وكثير من المتابعة كان يراها لأول مرة .

ثم ينطلق الأطفال بعد ملل المتابعة إلى صخبهم المندوى يجرون في كل بقعة من المنزل والحق بأحدهم وهو يفرر تصفح مجلد البداية والنهاية لابن كثير فيمسك بخلافه فيشعر ثقل الكتاب عليه ويكاد يسقط فوقه وهو مذهول في غرابة ، أنفذ الكتاب وأعيدته تلمحنى أمى فتصرخ فيهم ألا يقترب أحد من المكتبة ، أحسن عمكم ، ثم تتوقف عن التهديد حتى لاتفسد بناء اللحظات مكتفية بإشارة من يدها يحدو الطفل إلى رفاقه متجاهلاً الموقف برمه ، لكن آخر يقف أمام مرآة طويلة في غرفة النوم ويبدأ القاء الأمشاط وفرش الشعر وعلب الكريم وشرائط كاسيت

منسية على الأرض في بساطة وطفل يعبت في كل مفاتيح التليفزيون وتسرع أختي في غلق باب غرفة الجلوس وتمنع أخرى اثنين منهم من اقتحام غرفة نوم أبي وصلاحتي العتبة ورأيا أبي جالساً يقرأ القرآن وأمي تبحث عن نقود في مكان تحفظها فيه ، تأتي أختي من خلف الطفلين وترتبت على ظهرهما التحيلين طالبة منهما التراجع للصالة التي إمتلأت بأطفال كثيرين أنادي على واحد منهم بأسمه فلا يرد فأكتشف أنه ليس أسمه بل وليس واحداً من أطفال العائلة على الإطلاق بل هو ابن الجيران في نهاية الشارع التقطه طفل من العائلة ولعباً معاً ثم دخلا إلى البيت ليشاركنا في الإحتفالية ، أطلب منه محاولاً أن أكون عطفوفاً الخروج حتى لا تنقلب عليه أمه أوصله إلى عتبة المنزل فأجد طفلاً من العائلة يقف أمام الباب مع طفلين غريبين ويدعوهمما للعب معه في الداخل .

والأمهات مشغولات عن رعاية أي طفل فضلاً عن إهتن لا يستطعن رعايتهم في هذا الضجيج أصلاً ، فالأمهات كلهن في المطبخ الآن ، جاء أولاد عمتي من المحلة الكبرى ومعهم صحبة أخرى من الزوجات والأطفال يتفرقون إلى الأماكن الطبيعية الأطفال إلى المرح والنسوة إلى المطبخ لإعداد الطعام حيث ازدحت عشرات من الصواني والأواني المعبأة بالباذنجان المقور والأرز معصور في حمرة المحشى والأصابع تمتد وتعباً وتصف وأواني فوق الموقدين المشتعلين بكل عيون الغاز البطاطس تلفى على الصلصة وأصابع الكفتة تفرق وهي بنبة محروقة إلى الآنية فتحمّر بالصلصة السائلة ودوائر الغليان تتحلق في الأواني وتصدر

وشبشها المستطاب وآلاف من قطع الخيار والطماطم في سلطنة تملأ صينية كاملة في شكل هرمي متكتل ، وتقطعت مئات من قطع الخبز الساخن الذي جلبه خال آخر بعلاقاته مع عمال المخازن جاءت الأربعة بالمشات ساخنة مفرودة موصى عليها بحملة في أسبنة اندفعت نحو المطبخ فور حضورها مع مقارنة كل العمات وبنات العمات وزوجات أولاد العمات بين الخبز في مدتهم اللون والشكل ومدى العناية ومسافة الرعاية وسهولة الشراء ونصيب صناديق القمامة من البقايا .

تقلب إنة عمة بملعقة كبيرة صينية المكرونة تغوص في الحمرة بقطعها الصغيرة المشكلة المضيلة ثم تسأل أمي عن حاجة وقد تصيبن جميعاً عرقاً واشتدت وجوههن بخاراً ولكن مسحة بأصبع على جبهة تكفى لينة ضحكة وخكى نذرة ونص طريقة وسؤال عن حال واستئناف الحماس نشيط صادق لأجل إطعام الأقواء المستضافة القادمة للفرح ، وسط دعوات حارة لإتمام الأمر على خير وعقبال الأولاد والخام لتزويج الابن الكبير (أنا) وترشيح بنت الحسن والجمال أو هلاك فادم من السماء أو فتاة مهذبة جميلة جارة لإحداهن ، تعتقد أنها النموذج الوحيد للجمال على وجه البسيطة ، خصوصاً لو كانت في كلية الطب أو الهندسة ثم فتوى من احداهن لن أتزوج سوى صحفية مثلى ، ثم تخوف من أمي على قطعنة تتبرع بها كثيرات .

أحد الرجال القادمين إلينا يريد الخروج من باب الغرفة المظلة على الحديقة إلى الصالة ثم إلى باب المنزل للذهاب لمشوار عاجل ، يلتبس

عليه الأمر فيدخل إلى المطبخ بدلاً من ردهة باب الخروج فتضحك النسوة ويشرن له إلى الباب .

من الشرفة يكون أحد أبناء العمومة بعد في تمام حرص ودأب حب وإخلاص متفان كل لزوم زينة الكهرباء على واجهة المنزل وفوق البناءات المجاورة وعلى الأصعدة والجدران ويتباهى به أبى حرفته في الكهرباء والتي يشتهر بها في المحلة الكبرى وكيف أخلص إلى حد جلب هذه الأشياء إلى الفرج ، ماكينات كهرباء ومئات من المصابيح الملونة وعشرات من النجوم الكهربائية المستديرة وحوله أبنائه الصغار الذين يربهم على الصنعة وشرب الحرفة وصيانه العاملين عنده ، يصعدون سلالم ويتسلقون أسواراً ويركبون شرفات ويصفون على بعض ويربطون أسلاكاً ويلقون مصابيح وهناك تحضر سيارتان لابن عم للمشاركة في انتقال المدعوين ، عملاً الأصواء الشارع كله فتطلق فيه نهراً عاجلاً في نهاية الشارع ، يبدو ابن عمه مانت منذ سنين طويلة كافية لتلا يقى في ذاكرتى لون بشرتها أو سمة ضحكاتها أو طعم ملمس كفها على كتفى ، أخبرنى أبى أنها مانت ولم استقصي للآن سن وفاتها وأخبار موتها وكيفية رحيلها عند البلدة أو غياب ابنها عنا سنياً ، كان قدومه فيها نادراً نادرة ادراكنا لعدد أبنائه منذ خروجه من الجيش بعد معركة ١٩٧٣ حيث أصيبت أذنه بعرض ما أضعف السمع وأرق الجسد وخبره عندنا قليل وحضوره لدينا متسر يجهى . من نهاية الشارع طمساً دين وجه كامل وصحبة دون سرفة وإنية وحين يدخل إلى ردهة المنزل يدب فينا حين

دفون وذكرى مغردة وعصف لتراب سقيم علق على جدران قلوبنا ، فتراحت العائلة الوافدة من كل صوب كى تلقى الابن العائد بعد غربة (يعد عن مدينتنا عدة كيلو مترات فقط) يحضنه أبى بوفر من الدمع والتصاق للصدور وقبل موزعة على الحدين .

كيف حالك يا خالى ، لك وحشة والله العظيم ، ألف مبروك ثم تندفع إحدى نخلاته إليه فتأخذه في حضن افتقد جسده النحيل ووجهه الشاحب وجلبابه الواسع وشاربه القصير وهدهده الرزين وبسمة الوداعة وينام برأسه المندهش فوق كتفها القصير البض اللين وهي تبكى متشنجة جاذبة ذكري أختها البعيدة وإبنتها الوحيد في صدرها بعد فرقة ثم يقدم لها أبنائه وزوجته الذين أخذوا بحرارة اللقيا وزحام المشاعر وارتجاج الأحاسيس فوق الوجوه في العيون المشوشة بالحمرة والدموع والفرج وخط غير مدير من العواطف .

الأطفال الهادئون يتعلمون الصخب والأقارب مستغربو المكان يتدججون في المكان والزحام والجسور البعيدة السمبكية بين الناس تعبها الكلمات والمشاركات ، في إرتباك وتوجس من خطأ ما قد يشب في أى مكان متى الدائرة الواسعة من العالم الخاص بنا ، يسأل ابن عم هل اطمئن أحدكم على استعدادات البرج ؟

بسرعة وحماس تشابه الآراء حول ضرورة الدعاب للإطمئنان فهو الفرج الأول في العائلة الذى يقام بعيداً عن سطح منزلنا الذى شهد

أفراح أخوالى وخالاتى وابن عمى حيث كان السطح يمثلء بالمقاعد الخشبية ذات القاعدة الخضراء والنقش حول المسد بأسم صاحب محل الفراشة ويقوم العمال أيضاً مكاناً غالباً قليلاً بالزواج من الخشب ، فوقها مقعدان للعروسين ، وفي آخر لحظة دائماً نسرع إلى طنطا بسيارة أحد المعارف لشراء باقات من الورد نضعها خلف المقعدين وأمام ملاءة فاخرة مطرزة كبيرة كنا نستخدمها فرائشاً لبلى العبد على سرير والدى ، وعندما تطورت علاقاتنا بالأفراح صرنا نذهب إلى المدرسة الزراعية بالمدينة ونشترى من بسائها الورد والزهور بحرص من أحد اصداقاء العائلة الوردودين والمخلصين حيث يعكف على هذه المهمة الخاصة وكان دائماً ما يباشر تأكيداته لنا بأنه كفيل بها وبأن كل شيء على مايرام ثم يشرح - فيما لم يطلبه أحد منه - أنواع الورد اثنى مياثى بها وأهينها وأفضليتها على الأصناف الأخرى والحكمة من بقائها طويلاً والعامل الذى يمت له بصلة مالا نعلم كنتها الذى ميبولى إعداد الباقات عناية فائقة ولين يفرق أبداً عما نأتى به من طنطا وبثها ، ثم يضيف طبعاً أن الورد نخساره في العريس والذى يكون أحد الأحوال فيجب أن نضع وراءه حبرة أو نخلة حيث أن هذا مقامه ونلقى كلامه في ضحك مرتج بينا يعالجه العريس بكلمة ساخرة أو بكلمة ساخرة أيضاً .

وكانت الفرقة الموسيقية التى تعزف فوق السطح جديدة بالعزف فوق السطح ، فهي مكونة من بعض الشباب بقودهم جار لنا محترف في فرقة الأفراح ، وكان أحد أصدقائى عازفاً بها ويعكث طيلة صداقتنا يعاير

أبناء العائلة أنه الذى زوج أباهم وينادى على صبي منهم في لحظة أمرة حاسمة .

فلا يطيعه الصبي فيقول في حسرة .

- شوف العيال ، أنا يا إيشى الذى زوج والدك ، وكانت الفرقة دائماً مشار جدل حول الإتيان بها وكفاءة القيام بمهمتها وأجرها الغالى لكنهم كانوا دائماً يأتون بها ويقوم بمهمتها ولا يكون أجرها غالباً حتى بدأت الفرقة تبعاً لفقرات الدنيا تفقر في الآلات فتجاوزت جارانا الطيب الذى أصيب بمرض السكر وصار صديقى أحد نجوم فرقة أخرى من العازفين على الآلات الحديثة مع فناء النقوط الذى شبعنا اثناءه ضحكاً على ما يفعله أحد أخوالى هم ، فقد كان يتبارى في الرقص يؤدي رقصة طويلة شرقية رائعة فيها لبونة الحركة وخفة القفزة ورشاقة الالتفاف واتشائه المحترفين وروح مرح يفتقدها كل راقص مصر ويقترب بصدرة نحو العريس مقلداً أمهر الراقصات فنضج بالضحك ثم يداعب والذى الجالس في وقار وإتزان فيبسم الوالد فيعد الخال هذا نصراً فيتعلق بين الدوائر التى تشع حوله مصففة مهللة محبة ، ويجذب منهم تصفيقاً حاراً ومجنوناً أحياناً حتى يقرر التوقف في لحظة مجد ثم يطلب وهو مهدج الصوت لاهت الأنفاس سيجارة من أحدنا ثم يعسك بطنفه ويرفعه على كتفه ضاحكاً ويطلب منه مواصلة الرقص بدلاً منه فيقلده إبه في انطياق يدعو للدهشة والضحك .

وكانت سهرة الفرح دائماً معلقة بحكايات بين المقاعد وعلى درجات
السلام عن الزفاف ونحن تبادل إشارات وتلويحات مفهومة من الجانبين
فيضحك من يفهم ويسايرنا من لم يفهم ، ويبرز أحد الحاضرين بحكاية
الصديق الذي أخذنا صبيحة عرسه إلى شرفة الشقة حيث كنا ثلاثة
يتوسطنا وأمال جذعه على إفريز الشرفة ومضغ كلماته في خجل وتردد
وخوف يحكي عن ليلة الدخلة وكيف لم تطعه رغبته وخذلته قوته ، لعن
رهبة الموقف وقلة الخبرة ومفاجأة الانفراد بأول امرأة لأول مرة في حياته
وكان لا يدخن ومن ثم تابع تدخين بعضنا بشغف التنفيس ثم استطرد
في بطاء أن زوجته كانت طيبة هدأت روعه وحاولت مساعدته حتى أنها
خلعت ثيابها كلها عنها وريبت عليه وأنامته على صدرها وأسرت له أن
هذا شيء عادي وأنها لن تلح عليه فهي أمور تحدث دائماً وكان يسألنا
هل هي أمور تحدث دائماً وتركنا للمتزوج فيما أمر الفتيا فأرسل فيه
إطمئناناً جاداً وأعلمه أنها مسألة طبيعية جداً ولاداعي للقلق ودعاه
لسجارة فلم يستجب فأكمل أن الليلة حاول مرة أخرى بهدوء ثم أحال
هذا كله إلى طهره وعفافه من قبل وأن المرأة عادة تكون أكثر فهماً ودراية
وأمومة في مثل هذه المسائل ثم نكمل جميعاً القصة وبضحكات عالية
مدوية تلفت أنظار الفرح إلينا حين يصعد هذا الصديق مع زوجته وعلى
كتفه طفله قادماً نحونا ونحن من فرط الضحك تعمى عيوننا عن رؤية
إبتسامته المستهزئة ونوعده لنا بطلوع الزوج به بغيره
حلقات الأصحاب والأصدقاء في هذه الأفراح فوق السطح كانت

عميزة ومتميزة جداً فقد كان كل عريس على موعد مع أصدقائه بعد زفافه ،
فقد أسرع أصدقاء أحد الأخوال إلى شقته في الدور الأرضي بعد أن دخل
هو وزوجته بعشر دقائق وبدأوا الدق على النافذة يعنف الصراخ
والضحك ثم الرقص والغناء ثم عودة إلى الحيط على الجدران والنوافذ
في رعب بوليسي ساخر ومضحك لكن الخال لا يجيب حتى لا يتأذى
الأصدقاء في دعائهم الثقيلة فيندخل أقارب عائلون لفض هذا
الضجيج ويرحل الأصدقاء في ضحكات متفرقة منسحبة وثباتات
متعددة ومهميات منتهية .

أما حلقة من أصدقاء خال آخر فقد اكتملوا ثمانية ومضوا جميعاً إلى
الشارع الذي تقع فيه شقة العريس وتعلقوا تحت الشقة العالية المغلقة
وأخذوا في إصرار ودأب وصوت عال ينادون عليه .
- انزل يا أحمد .

فلا يستجيب لهم فيرتفع صراخهم جاداً وضجيجهم مدوياً ،

- انزل يا أحمد يا جبان .

وينحن أحدهم إلى الأرض فيلتقط حجراً صغيراً ويقذف به نافذة أو
سور الشقة أما الآخر فيضع كفيه حول شفتيه وينغم النداء .
- أشوفه ..

ثم تبدأ الخلفة في التفكك قليلاً على انفراط الإصرار وتبط العزيمة
ويتدرج رحيلهم ثلاثاً والآخرين وراءهم لكن أحداً يتبته ويصرخ .

- إنه يفتح الشباك .

فيجرون نحو الشرفة فلا يسمعون حياً ولاخبراً ويدركون اللعبة
فيتنقم بعضهم من صاحبهم أما الآخرون فيلقون حصوات على الشرفة
عجطين من هزيمة صبر العريس .

كانت الغرفة ملاءى بصديقات اختى التى تتوسطهن في ثوب عرسها
جميلة متألقة مثل القمر بعد أن أخذت زيتها وصعدت فرحتها إلى عينيها
وشفتيها وإحمرار خديها ونور جبينها وثوبها الأبيض المطرز وغطاء شعرها
الإحتفال ، اقتربت منها وهي منشغلة بنفسها عن الجميع وفرحتها عن
نفسها ، أمسكت بيدها فنظرت مبتسمة لي فقبلت كفها داخل ففازها
الأبيض «الدانيلا» الشفيف فأخذتها الدهشة والفرحة .

وقلت لها

-مبروك يا قمر .



الأهلى والزمالك

النخل لم يعد نخلاً

عبرت الردهة المؤدية إلى الصالة فأرتج شيء داخل ، الصالة خالية في المنزل الكبير ، انسحب منها الضجيج وانطوى تحت إبط النوم .. ونام عيثت عيني في الفراغ ، أضواء ناحلة تفرزها «وناسة» خضراء معلقة في السقف .. ساعة الحائط أخلت لها الضجة والصخب تماماً دفاتها تحفر الجلد وتبغر الآن الأذن بأن شيئاً ساحقاً اسمه الزمن هنا ينظر ويتنظر ، أصوات ازدحام أرجل الفراخ والطيور فوق السطح تجري واحدة وراء أخرى ويزعق ديك أعشى - ظن أنه الفجر - ، ثم اشتركت حمامة في «المنور» فطارت مرفرفة فأصطدمت بعلمة من الصفيح تستخدم عشاً لها فبعضثر الصمت مع القش المتساقط من العلبة ، فأغلقت النافذة المطلة على «المنور» واستندت ناحية الأريكة المفروشة بالخضار ومسد بتوسطها ومساند أخرى ملقاة هنا وهناك على الأرض بجانب الأريكة المقابلة آثار فوضى المشاهدات المستغرقة لشاشة التلفزيون ، انسل صوت أخى متسللاً من غرفة النوم المفتوحة على الصالة متقلباً على فراشه ثم سائلاً في لحظة ظننته يتحدث مع نفسه إلى أن أقبت على وضوح السؤال من غمغمة النوم .

- أين ستشاهد المباراة يا «أخوى» ، يقول «أخوى» برنة حب و زهو
والتصاق يفتح صدرى ويسكنه و... يضيف وطقطات السرير وقرقرة
الحشيب من ثقله الثقيل المنمرد يضئ على إضافته صيغة الفزع .

- هنا أم في القاهرة .

أجبت في حدة غير مبررة ولم يخشى فضيحة الدموع (التي ستأتى
ستأتى) .

- لا أعرف .

أحسن أخى عيبة أمل في الإجابة ، فتفرغ لجلب النوم وتركنى كلماته
مستنداً على الأريكة نائماً فوقها متغلباً عليها بعد شعورى بوجع كتفى
الناثم .

التفت ، فوجدت أمى تدخل من باب المطبخ إلى الصالة حاملة
صينية معبأة بأكواب «الحلى» الصفراء تصعد منها الأبخرة وتقرش
بقايا مياه غسل الأكواب على سطحها ويؤنسامة تشق طريقها في زحام
الأحاسيس والمشاعر والانتباهات المحدقة في الشاشة ، أشبه لها أن
تتحرك قليلاً لأنى لا أرى جانباً من المباراة ، أما أمى فيصرخ عندما
تتحرك أمامه .

- هل هذا وقته ؟

فتحاول أمى ضاحكة أن تحضن روعى

- هذه «حلى» هدى أهصيك .

يشيح أبى بكفه .

- يور .

أبخرة «الحلبة» الساخنة مدموجة مع تنهداتنا جميعاً ، نملأ الصالة
نزدحم أمام الشاشة نلصق عيوننا فوق أقدام اللاعبين وننحشر في
حشائش المساحة الخضراء المترعة باللثيث والجري والكرة البيضاء ذات
الرقط السوداء تشعل فينا الوهج .

كانت الصالة مزدحمة بهم جميعاً - أيام كانوا هنا جميعاً - أبى جالساً
على فرشاة محشوة بالقطن مستطيطة لينة على مسعدة أقل من متر من جهاز
التلفزيون ووضع جانبه تحت «البوق» «كوب» «الحلى» ، وكل لحظة
يشير إلى خالى الجالس على مقعد خشبي ملتصق بالتلفزيون تماماً حتى
ترى ظلال أضواء الشاشة وحركات اللاعبين فوق أنفه الطويل الأبيض
واللامع يشير له .

- حاسب .

يخشى أبى تحرك قدم خالى صاحب الجسد الضخم والطول الفارع
والعنف الفطري الجميل الذى يثور في لحظة ويبدأ في الدفقة التالية لها ،
أو يعائد معنا فيستمر في عنفه - لمجرد أن يستمر ولمجرد ألا يشعر أنه لم
يفضب لسبب قوى - وكانت جلستها أمام الأهل والزمالك محل اعتبار
لكليهما دائماً ، فخال هو الوحيد الذى يشجع الأهل في عائلتنا كلها كلنا
نسبحم في حب الزمالك والتعصب له والإنهاء إلى انتصاراته

وانكساراته وغمة النفس التي يُصيب بها مشجعيه دائماً ، ومنذ اليوم الأول الذي شعرت فيه حب الزمالة جئت في صدى وأنا تادم على حب هذا النادي ، في الحقيقة كلنا نادمون على حب ولكننا جميعاً أيضاً نقول ما باليد حيلة ثم نعود لحبه والتعصب له والتطوف لأجله والتمتع عليه وسبه وقدف كل لاعبه بالرعوة وقلة الإتياء مثل أى عاشق يعبد حبيبته ويعود لها رغم أنها تخونه عند أول ناصية يتركها عندها .

والبيت كله يتنفض بالزمالك في هذا اليوم ، فالأحوال كلهم وابن العم وأنا وأخواتي البنات وأخي الصغير كلنا نزدحم أمام الشاشة خالي الآخر يجلس على الأريكة في المقابل واضعاً ساقيه تحت فخذه والساق الأخرى مدلاة على الأرض حيث يجلس خال ثالث متربعا في تحفة وفي كل لحظة نطالب جميعاً من أبى ألا يتحرك حتى نرى الشاشة كلها وخالي الجالس على الأريكة يرفع كوب الحلبي إلى شفثه حين تذف كرة قوية فتهاز الحلبة فتسقط فتسرع أختي المثبهة إلى المباراة تلتفت قدميها من الأرض ، ثم يتكاسل الكل عن القيام لإحضار قماشه لمسح السائل المتسكب ، بينما يلتفت أبى فيرى الموقف فيزعم في خالي :

لماذا هذه العصبية ؟

فتضحك جميعاً ويطلق خالي الأكبر بشأريه المنسق وشبابه المزدهر رغم مجاوزة الأربعين .

حلاوتك يا أستاذ سيد .

ثم يفتخر على ظهره في حركات سيرك ويتقلب حتى يصل لأبى الذي عاد فحوم المباراة فيدفعه أبى بعد المفاجأة ويبعده عنه .

بطل لن تكف عن هذه الحركات .

فيدفس خالي الممثل القديم ذقنه في عنق أبى وظهره في محاولة منه لجره بعيداً عن المباراة ولما كنت - حتى دون سبب سوى أن خالي خفيف الظل يضغط على غدة الضحك عندنا جميعاً بحركاته - أما خالي الجالس على الأريكة فقد قفز الآن فوقها وهو مضروب كأن تمساحاً خرج من بطن حشو الأريكة .

ضاع هدف أكيد هذا لاعب حمار كان المقروض بضربها بجانب قدمه اليمنى فتلف وتدخل في سقف الزاوية .

يتبه أبى له فيقول وهو في نصف قيام لرؤية مجريات الكرة جيداً .

لا .. كانت بعيدة يا سيدى .

أخواتي يتحركن في ملل الآن ، الكبرى تستعجل النصر ثم تُفنى في الكرة بشكل يدفعنا كلنا إلى الصراخ فيها .

واللهي ... يا سلام ... والله .

فنصر على رأيها أن الزمالك سيء وأن أحسن لاعب هو أسوأ لاعب نراه نحن جميعاً ... يقوم أخي الصغير من الأرض إلى توسط الصالة فنضح جميعاً منه ثم ينطلق إلى الشرفة وبعد لحظات نسمع كلنا ضربات

الكرة في الجدار وخطات القدم على البلاط وصباحات ونأوهات فوز وأهداف وهمية فيضحك خالي الكبير .

- شادى قرر يخلص نفسه ويحرز هو الأهداف في الحائط .

بينهم أحدهنا ويضحك آخر ويلعن ثالث عجريات اللعب البطي .
بينها يقيق أمي من تركيز انتباهه وعمق إهتمامه ويسأل :

- ما هذا الخط ؟

فتنادى أمي أخى في حزم وصراخ .

- تعالى هنا يا شادى .

فلا يسمع فهو أساساً لا يريد أن يسمع ، متدججاً في إحداث نصره الذاتي وتحققه الفردى في فوز يصنعه هو لنفسه وبتنفسه بعيداً عن لاعبين يصيبون أخوته وأهله بالشلل لجراء عجزهم عن هدف وتستمر أهداف أخى في الحائط حين يقفز خالي الأهلوى من مقعده بعد هجمة ناجحة لفريقه على مرمى الزمالك ويصرخ .

- ياه ... هدف أكيد .

يتنفس أمي براحة آمنة بعد صياح الفرصة ويلكزه بكفه .

- قال يعنى الولد لاعب قديم في الأهل ، يمكن مشترك في النادي الأهل ونحن لا نعلم يا أخى .

يقضب خالي من المداعبة فيتنفس الهواء من أنفه دون أن يملك حرية الغضب المتبادل حتى يضيق بحصار أخوال الأخرين .

- بالذمة أنت فاهم حاجة .

- لا عليكم .. أهلاوى ماذا ستفعل له ؟ هذا خلقة ربنا ؟ نحاول أمي أن تناصر أخاها مهتر الموقف .

- يا بنى ما الذى يجلسك معهم ؟

بضرب خالي بكفه على فخذه .

- كى يعرفوا ماذا سيحدث لهم ؟ أصل لو قصت من مكاتى الزمالك سيضع أهدافاً وأنا لا أريد لهم ذلك .

يقوم خالي الكبير إليه متدفعاً ويضربه على ظهره ويضغط على كتفيه ويكاد ينام فوقه بجسده النحيل .

- لا .. أجلس هنا .. ثم يواصل الضغط وخالي المتكدى عليه مستسلم في إنسجام .

- أجلس لما ترى هزيمتكم وخيبتكم .

يقبم خالي ظهره فيسقط الآخر على الأرض في حركة تشيلية بديعة وهتز بقدميه وساقيه في رعدة الراقصين .

- قللى ، ثم بالجيم ، جلى ثم ينهض في خفة ويسأله .

- ماذا تضع في يدك «دشم» اسمت .

وحين تندفع هجمة ضد الزمالك يصرخ فيهم أمي .

- وماذا بعد ؟ (وقى ضيق بالغ) لانستطيع أن نتابع المباراة منكم ،
خلاص تروح تنزل في مكان آخر .

حرارة الجو محكمة بعد أن قررت أختي الوسطى أن تخلق كل منافذ
الضوء وتصبح الصلاة معدة لمشاهدة حقيقية للمباراة كأنها قاعة عرض
سينماي يمتلئ أبى ويقوم مسرعاً فيفتح نافذة الصلاة ثم يعود لمجلسه ،
وقد تحرك شيء فبنا ، قلتي وترقب وتسرب جاد في شرايين الصدر يؤخر
دقات القلب المقرعة وارتفاع في نبضات متدفقة تدير في تحرك الأكف
توتر القدم على الأرض ، اشتعال الحذور والوجبات حمرة ، أنفاس قلقة
تهتز أمام أنوفنا ، قيام وجلوس ، يمنة ويساراً ، ضربة بالكف على
الأرض ، إمساك الأصابع بالرأس ، طرد الأطفال - أبى طفل - لحظة قدومه
نحونا ، صراخنا ضد كل من يعبر أمام الشاشة ، أنهن المقاعد الخشبية
تحت مؤخراتنا ، وجع الأرائك من اهتزازنا ، زحام وتشابك والثناء وتوحد
واعتصار وانصهار ومعانقة ودقة صاخبة ساخنة .

حين يدخل صديق العائلة في مرحلة المعتاد وتشجيعه للأهل الفرح
يضج نحالي الكبير مازحاً في وجهه .

- ما الذي جاء بك هنا يا ولد ؟

وتبعه : هي نافسة ؟

- يكفي وجه عكر واحد هنا .. لازم ثاني يعني .

يدخل ضاحكاً متلفتاً إلى نحالي رفيق أهلاوته .

- يعني ليس هناك أحد معنى سوى هذا الأتوبيس ؟ يشجع الأهل ،
يلقبه خال بمسند الأريكة الخشن .

يتلقاه قبل أن يحطم نظاراته وقى تدم ضاحك .

- خلاص أنا أسف ، أنا عيل .

ثم تقوم فزعين جميعاً قومة رجل واحد حيث يتفرد لاعب بالمرمى لكنه
يطيح بها في السماء يحرق خال ممسكاً كتف الصديق .

- شفت .. الولد رقص واحداً (ثم يحرك جذعه راقصاً) والثاني
(بواصل الرقص) ويعدى من الثالث (يعمل بقدمه وساقه كأنه يستدير
بكوة) ويسن الحذاء كرة مقشرة مثل الصاروخ .

فيتمسم الصديق في أسنان تكشف ضحكة غارقة مكتومة .

- طيب ثم ماذا بعد ؟ ماذا حصل يعني ؟

ثم يشير إلى الشاشة ويضيف

- يا حبيبي الكرة ضربة مرمي ، هل هناك قانون جديد في كرة القدم
أصدره الاتحاد الدولي اسمه ان الزمالك لما يجيب ضربة مرمي تحسب له
هدف .

فلما يشتد في سخريته ، تعالجه أكفهم بضرب خفيف يسكنه .

حرير الماء صاعداً من زاويتين في المنزل ، الحمام الكبير ، وحوض الماء
أمام الحمام الصغير ، يغسل قلقتا ويقوى في وضوء نصفنا - على الأقل -

نلتحق بصلاة العصر في استراحة المباراة وسط حفيف التوقعات والتعبيرات عن غيبة الأمل في مستوى المباراة وضحك متأخر عن حادثة حصلت ، ومتابعة لإعلان ما على الشاشة ، وسؤال حول موعد بعد المباراة ومكالمة هاتفية يجريها خال ويحث عن ورق رسمي في حفية بنية ضخمة يطلبه صديق العائلة كي ينهي إجراءات خاصة بالتقابة لأبي ، وأحد الأحوال يقف في الشرفة وأخي يواصل لعب الكرة ، وأنا أقلب في صحيفة أو أكمل فصلاً من رواية وأختواتي يذهبن إلى المرأة أو المطبخ أو الجنة وهناك يجلس والدي بعد الصلاة يداعب الشجر وينغمس في الزهور ويندس الخضرة وكأنه لم يكن منذ لحظات مضبوطاً في توتر وإهتزاز ، وحين تبدأ اللحظات الأولى من الشوط الثاني يسعى والدي إلى الصالة عابراً سلام الجنة ، الشرفة ، الغرفة ، تلفت نظره فوضى ما أو عبث بيني فيطلب تغييره وهو يجلس أمام الشاشة ، والأحوال والأهل يعبدون جلستهم ويتفاطرون من أمكتهم ، ويتمطى القلبي مرة أخرى فوق الصدور وتحث الجفون ويشير أحد الأحوال إلى مكان ما في مدرجات الجماهير .

- هذا هو صاحب العملية كلها ، يقف وينادي الجمهور فيهتف خلفه ويعني وراءه - عندما حضرت المباراة في الأستاذ (وهي مرة حكى عنها خالي كثيراً) كنت جالساً بجواره وكنت فاكتر نفسي كبير المشجعين ، طلع مجنوناً فعلاً ، والله العظيم لا يرى المباراة على الإطلاق طول الوقت ظهره للملعب ووجهه للناس يصرخ فيهم ويسبهم ويقذفهم بأنبل

التعوت وبتهمهم بتشجيع الأهل وليس الزمالك ويحثهم على الهتاف ، هذا الرجل وراء الزمالك في أي مكان يذهب له .

يلتفت الخال الأهلاوي الوحيد إليه متقدماً نفسه من وضع المنهم .

- ولم تقل يعني ماذا حدث لك وأنت راجع من المباراة ؟

يضحك الخال ويقاطعه .

- لا داعي .

هز الآخر رأسه متصمراً وهو ينظر لنا .

- أكل علفه سائخة ومعتبرة .

يقفز أخى إلى عنق خالي .

- صحيح يا خالي .

هذا الخال متطرف حتى التخاذ في تشجيعه حتى أنه بعد فوز الزمالك أحياناً يقف على سور شرفة منزل خالتي في الدور الثاني العالي وهو يجلس فوقها أو يسير على حافتها ، هاتفاً للزمالك منادياً على مشجعي الأهل - ومعظم الجيران من مشجعي الأهل - ويناديهم واحداً واحداً بينما يهتفون جميعاً يطلب منهم الخروج وعدم الخوف وينادي في حسم بهتافات تشجيع للزمالك ويذكر اسم لاعبيه وكل بحسناته طيلة المباراة سواء أحرز هدفاً أو غا زال لاعباً من - الخصم - أو أتى بحركة فنية جديدة ، يأخذ في رقصه ونحن نتابعه ونضحك ونحسمه وأبي يطالبه -

وهو في داخل الصالة لم يره - أن يبدأ ويكف وأحياناً ما يشتري خالي - في لحظات اليسر المادى - قطع حلوى وشيكولاته زهيدة الثمن وافرة الكثرة ويزعجها على جميع أطفال الشارع في مناسبة حصول الزمالك على بطولة ما من فك الأهل ويمسك بعشرات قطع الحلوى ويلقيها من الشرفة وسط الأطفال ألتهاوتين عليها ويصرخون عليه .

- زمالك ... زمالك .

ثم يدخل إلى المنزل هادئاً مرتاح البال مبسّم الوجه وقور الهيئة تماماً ويرتدى ملابس النظيفة المطوية بعناية أو يدعو أحدنا بربع جنيه - أن يكونها - إلى أن يدخل هو الحمام ويصلي أو يغسل رأسه أو يستحم (أى من هذه الاختيارات) ثم يرتدى الملابس المكوية ويخرج لإستكمال انتصاره على رفاقه وأصدقائه خارج منطقتنا وهم أيضاً لا يغفرون له على الإطلاق حال هزيمة الزمالك (وهو كثيراً ما يتهم) وأحياناً ما كان يأتى أحد أصدقائه الحميمين ومنافسه الأكثر خصومة في تشجيع الأهل راكباً سيارة تصف نقل (نبدل جهداً في استئاج طريقة الحصول عليها) ويدعو كل صبيان وأطفال المدينة من مشجعى الأهل (وهناك طبعاً من غير مشجعيه لكن يشجعون فقط ركوب سيارة واقفين وصرخين وقائسين بعملية تبدو حربية) ويقفون في هتاف وصراخ وعويل حقيقى ورايات حمراء وهتافات حمراء جداً ويقفون أمام منزل خالي مطالبيه بالخروج وما كان يخرج أبداً وربما خرج مرة واحدة ضربه جميعاً ثم دخل إلى المنزل .

ذهبوا الآن جميعاً .. راحوا هناك إلى حيث لا نستطيع أن نلثم كلنا كما كنا أمام الشاشة فوق النجيل الأخضر على شاشة تليفزيون منزلنا الكبير ، صار لكل خال منزل وتليفزيون وأولاد وحياة ، وسافر أبى وصار يتصل هاتفياً عقب لقاءات الزمالك أو إثناءها .

- كيف حالكم ؟

- كيف حالك يا أبى .

وفي جملة تصدر السطر الثانى من كلامه يسأل .

- ماذا فعل الزمالك ؟

الصوت يأتى من بعيد والبرقة المترفة المتوجسة (غربة الهزيمة أقسى ما يجذل المهزومين) وكانت أمى دائماً تدعو أن يفوز الزمالك حتى لا يحزن أبى فوق حزنه .

صار خالى بعيداً عنا أكثر من مائة كيلو متر يأتى أيام الأجازات الموسمية ولا يعبر علينا إلا لماماً وربما لم نعد نتحدث أبداً في الزمالك ، وأجرى صديق عائلتنا عملية جراحية ثم عملية ثانية وماينها تحليلات وكشوف وخمود وحزن وفنور حماس ، أما الصديق الأهلاوى لخالى فسافر إلى دولة عربية ، ونراه على إستحياء وبشحيات رسمية متعجلة وهو مرتدى غطاء رأسى أبيض وينادونه يا حاج .

وسافرت أنا أيضاً وابتعدت في القاهرة ، وصارت مشاهدة لقاء الزمالك والأهلى مشقة أمامى كلما حل على في القاهرة ، أبحث عن

مقهى أو صديق يرضى التزوج خارج منزله ساعتها وموافقى ، أو أن يضيفنى فى عتف هذه اللحظات العائلية لمشاهدة المباراة ، فأمضى الوقت متخرجاً معزولاً عن كل طقوس ، مغترباً عن «حلبة» أمى وهتاف أبى وشجار العائلة وضحك الأخوال وأحياناً كنت أذهب إلى «الأستاد» أجلس فى مقصورة الصحفيين وحين تمر كاميرا التليفزيون أمامنا أتساءل هل سيرانى أبى وأخوالى والعائلة التى مضت كل بتليفزيونه وحياته بعيداً عن صالة منزلنا أين هم الآن ماذا يفعلون أمام الشاشة ؟

وحين كانت حبيبتي تقرر أن تصبح حبيبتي فعلاً كانت مهمتها أن تحب الزمالك مثل تقرب من هذا الفريق كما أقترب وتحزن لفريقه وتتابع نتائجه وتسال أخوتها أو تفتح التليفزيون لحظتها وتطمئن هل فاز الزمالك ؟

وكنت معها يوماً حين كانت المباراة قد اقترب موعدا وقررت أن أعود إلى منزلنا القاهري الضيق يلعنى وحيداً أمام الشاشة «أبيض وأسود» أتابع المباراة لكنها أبت وقالت لى تعالى معى وذهبتا إلى قاعة ملحقة بمكتب تعمل به ، كان هناك رجل أبيض مهندم عليه مسحة الأجانب ووقار علمى محامد يجلس فى نهاية القاعة ووجهه إلى الشاشة ، وجلسنا أنا وهى على أريكة بجوار التليفزيون ، وبدلت هى جهداً فى ضبط الصوت وإظهار الصورة ودقة الألوان ومالت برأسها جانباً على مسند الأريكة تمشى وراء عيونى المحدقة فى الشاشة والتفت لها ورأيت عيونها الواسعة ووجهها عليها حمرة خفيفة وعلى شفيتها تغزل ابتسامة

وعتقها نحيل بغرى بالناس ، وكنت أريد أن أعانقها إن أضعها على صدرى وأشم شعرها الأسود الناعم وأضم أصابعها فى كفى ، لكن لا أعرف ماذا حدث يوماً فانفتح حوار ما أثناء المباراة بينى وبينها وقالت أشياء غصبت لها ، أفقدتني كل روحى المحلقة ، هبطت بالروح إلى قواعد الأريكة الخشبية ، تحت السجادة المقروشة ، ومستها فى الأرض ، هاجمتها بقسوة مذهولاً بها تقول مفاجئاً مما تحكى ، وغضبنا وتركنا اللاعبين على المساحة الخضراء بضربون الكرة يضربون الكرة يحاولون الإتيان بنصر ومنع هزيمة ، وسرنا فى حديقة محيطة بمكتبها وهى تشعر بالإحtnاق يضيق على عتقها هذا الذى كنت منذ لحظات أتمنى معانفته ، وشعرت بأنفاسها مكبوتة تريد الانفراج وطلبت أن تنصرف وتذهب إلى بيتها ، فارتبكت ، أحسست أنها تضيع منى ، كانت الأشجار تصدر حفيفاً خفيض الصوت والعمال يرشون مياهاً على الأرصفة الحاجزة بين الشجرة وخضرة منقوشة يعكف عامل على تهذيبها بمقص حديدى ضخمة (أين شجرة الليمون فى منزلنا) الفروع الزائدة والأوراق الملهووشة تسقط على الأرض بعد كل فرقة مقص وداست أقدامنا على الأرض وأنا أحاول أن أبت فيها فرحاً - وأعتذر عما أعتقد الآن أنه ما كان يجب أن أعتذر عنه - حتى هدأت أو هكذا قالت واستكانت وشرينا عصير ليمون لى «وجريب فروت» لها حيث لم نجد عصير طماطم ، وحين أوصلتها قلت لها بشىء من المراقبة

- ألم يكن ممكناً مشاهدة المباراة كلها ، أكان يجب أن نشاجر أمام الأهل والزمالك . وكان الزمالك قد إنهزم .

وحين كنت فوق السطح رأيت حديقة منزل جدتي تظهر الآن خاوية إلا من نخلتين (إحداهما فصل لا تبلى) والأرض مجرداء خالية من شجر زمان وخضرة الماضي حين كان الزمالك يتهزم ، وأنا لازلت طفلاً فأجبرى إلى هذه الحديقة وانزوى فيها باكياً الحزينة ، تأملت الحديقة التي أحاطها مالكةها الجديد (اشتراها منذ أسابيع من جدتي) يسور سبيل كل منفذ لها على منزل جدتي ويذر فيها بدوراً جديدة وقسم أرضها بزروع أخرى لكنه ترك النخل ، لكن النخل لم يعد نخلنا .



رمضان

مراجعة فروع التوقيت

أقف في الشرفة الواسعة الخالية إلا من عليّة كرتون كبيرة تحمل كتباً ومجلات قديمة عشت فيها رغبات الهواء والغريزة الجنسية عند التراب ، استندت على حافة الشرفة في منزلنا ، نطل على الشارع ، لأول وهلة ، لأول نية ، الأسفلت مفروش على سطح الرؤية حين كان الشارع تريباً كان عميقاً وسور الشرفة بعيداً لاتطوله أصابع أولاد عائلتنا حين يرفعون كعوبهم ويتشبسون بأظفارهم ونحن نتابع لهم دون عتاب ودون عون ، إلى أن يندر منهم التعب أو الجنون فتدخل نرفع أذرعهم ونحضن صدورهم ونأخذ بخصورهم فإذا هم فوق الحافة ضاحكين متوهمين أنهم نجحوا .

الآن بعد أسفلت عارم أنقذنا من التراب وسلمنا للضجيج المستمر مع مرور السيارات النقل والأجرة ذات أحد عشر راكباً رسمياً والعشرين فعلياً ، غطى الأسفلت عمق الشارع حتى صارت عتبات بعض البيوت العالية كأنها مداخل لأقية تحت الأرض وأمكن للأطفال الجدد في العصر الأسفلتي أن يصعدوا فوق السور للشرفة بعد أن كبر أطفال العصر الترابي .

ولكن الشارع خال عمراً دراجة متعجلة تصفر صخباً ثم تصمت ،
يخرج أطفال خالتي إلى شرفة الدور الثاني في المنزل المقابل (منزلنا
القديم) بسميرتهم الجميلة وأصواتهم ذات الجلبة الأكثر جلالاً ، ثلاثهم
يحتلون الشرفة بأجسادهم النحيلة للغاية أكبرهم يقف على الأرض يظهر
صدره وراء السور ، أوسطهم يقف مستنداً برجله على مقعد تقف فوقه
أختهم الصغيرة ويصيحون بأذان الصلاة ، يخرج تكبيرهم حاداً نحيفاً
صاحباً مع «الله أكبر» ثم يضجون بالضحك المفرقع الذي ينتقل صداه
للشارع الخالي بعرجه وطفولته وشقاوته .

كانوا يستعجلون أذان المغرب للإفطار .

وكنيت أقف في نفس الشرفة أصابعهم بعيني وألوح لهم بيدي ،
ويتألمون هم إهتمامي بأذانهم المتعجل ، وصوت الشيخ محمد رفعت
يأتي لنا من صائتة منزلنا ويتوالد جيراننا يؤذن لصلاة المغرب حسب
التوقيت المحلل لمدينة القاهرة ، أما المقيعون خارجها - نحن - فمكتوب
علينا الانتظار وهامى أضواء حجل تبيث من مصابيح الأعمدة العامة
في توزيع غير منتظم وغير عادل ، فالأعمدة بلا مسافات محددة
ولامساحات معينة ونصفها لا يضيء أبداً ونصفها الآخر يضيء بلا
مائل ، شجر قديم كان هنا في المسافة التالية للمنحنى لكن أصحابه
قطعوه وصارت المساحة معدة للبناء فبنوا أو باعوا ما أعلمه أن الشجر
راح ، ظلله على الأرض وحقيقفه على السمع وخضاره في أفق يبدأ بعزراع
تتقلص كل يوم في آخر شارعنا المؤدى إلى محطة السكة الحديد حتى

شجر الكنيسة الكاثوليكية في ناصية الشارع البعيدة ، راح بعد تطورات
المباني والتوسعات المعمارية التي ابتعلت أشجار الكافور السامقة .

يتردد مؤذنو المساجد في تحمل مسئولية إفطارنا فينأخرون دوماً عن
الدقيقة الفاصلة بيننا وبين القاهرة لذا ، ما إن يبدأ واحد منهم حتى
يعقبه الجميع وتختلط الأصوات حلوها وغليظها ومنغمها وصارمها لكنني
أنسحب من الشرفة إلى الغرفة وفي طريقى للصالة أصبح على الأسرة -
أذن .

كم مرة قطعت هذه المسافة بين الشرفة ومائدة الطعام الممدودة
أمامنا بعقاعدها السبعة (قبل سفر أبي) مقاعد حمراء مبطنّة ذات مساند
خشبية طويلة منقوشة بزهرة غريبة . كم مرة ا

هذه الأتار الصغيرة التي أعبرها فيعبرني الزمن ويغسل وجوهها من
آثار المرور استسلاماً ورضاً (وليس استسلاماً راضياً) وكنيت أعرف منذ
ظهور وجه المثنى على الشاشة ليعلمن فتواء في رؤيا رمضان كنت أعرف
أنه «الهم» اللزج الذي ينساب تحت ردائي كلما جاء رمضان وهو نفسه
الذي يأتي كلما رحل رمضان .

وأنتى ساحله في صدرى وعلى ظهرى وأعبر المسافة إلى الصالة .

موقف أحمد حلمي شرس في هذه الليلة حيث تزدحم مناكب البشر
وتتوزع حقائق المسافرين وتكتل جماعات المتظررين وتتكاثر على
الجانبين حيث يخلو الموقف من سيارات بينما يظل الكشك الخشبي

الأزرق صامداً أمام الإحساس ، فيه شخصان أمامهما بونات السفر للسيارات التي تأتي إحداها فيجري العشرات خلفها ، لكن السائق أحكم الغلق وأقل الأبواب وسد المنافذ إليه ، وهو يشير بكفه أن لا . لا لماذا ؟ لكل أسماء المدن التي تخرج من أفواه المثلثين على مقعد للوجود الجميل في ليلة السحور الأول عند الأهل في حضن البيوت الكبيرة والعائلات الدافئة وتبدو مظاهر رمضان المحتفة في مرادقات أمام الموقف ومقاعد كثيرة أمام مقهى وباعة جائلون للبلح الرديء ومجلات الفواكه كلها تعلن عن بضاعتها بفوانيس وزينة رمضان ورقية ومزركشة ولوحات بدائية ، أهلاً رمضان والأغاني نفسها وحيدة في الإذاعة تنفرد بالليالي كلها ، رمضان جانا أهلاً رمضان فيها طعم المناسبات وأغاني محملة بالذكريات وتقليدية المشاعر المسافرة ، وأصوات تنزل على دماغنا بأغانيها وأناشيدها (نصد قلبي عن التفاعل معها) نذكرني بصفحات مخصصة لرمضان والدين في الصحف المصرية بكل ما تحمله من معاد مكرر وسخف يومي في الصور والزركشات والبدائية الحالية من وهج الصدق ، أخشى هذه الليلة في موقف أحمد حلمي لذا فإنني أخلص نفسي من مهامى وأتعجل أشتاتى وأسافر قبل ليلة الرؤية حيث جلوسى مع أهل وأخوتى أمام المفتى ننتظر وترقب ويشوق البعض أن رمضان غداً ويتبنى آخرون أنه بعد غد ، ولا دليل واحد لدينا ولا مبرر لأنفعالنا في رغبة تحقق التوقع ، فإذا ما قال المفتى أن غداً المتعم لشهر شعبان أو أنه أول رمضان ففرق الفريق المختصر من فوق

الأرائك وصفتي وسمعت أصوات تصفيق من الشارع أو ربما من جمهور الحاضرين أمام المفتى ، أما الفريق المهزوم فيصمت وغالباً ما أكون متضماً إليه دائماً أريد لرمضان أن يتمهل في حضوره ليوم واحد ، وتنتشى في البيت غدة رمضان ، النوم يتأخر مع غضب موسمى على سهرة التلفزيون في هذه الليلة ، وأمسى تلج على أخى الصغير أن يدخل للنوم حتى يتمكن من الإستيقاظ للسحور ويعرف «يا أكل» لأجل الصوم .

وأمسى يبدأ صلاة التراويح وقراءة القرآن على الأريكة متابعاً بعينه أحداثنا (الصلاة - التلفزيون - الردهة - الشرفة) وأقوم في أهبة مضى شهر على هذا التحول إلى الماء لأنوضاً وكل قلقى على قضاء رمضان ، التوفيق بين التواجد الدائم للإفطار مع عائلتى حيث طبخ ساخن وحنان دافئ «قولة» ذات بركة ومودة وروح ، بينما هذه الإقامة في القاهرة وعمل البغض ينغص ويشت ذهنى وأبحث عن تقسيم الأسبوع وتوزيع الليالي والسفر لستين كيلو متر والسهر في رمضان وتقلب الأفكار في رأسى مثل قطع بطاطس تقاها أمسى في صنية ذات زيت متأجج على نار الشعلة الكبيرة أتحرق وأنوضاً ، وأبدأ بالبقرة بينما يظلل البيت الهدوء وتنعس العيون ويمشطنى الليل من مقاومتي فانفرد وحيداً على السرير في غرفتى ، هذا أفدح ما في رمضان المقيم ، تفرغ لنفسي وتفكر في أمرى وسرد لتاريخى ومناقشة لعمرى ومحاكمة لأحاسيسى ومناقشة لشاعرى ، أسأل نفسي وأعاقبها عن عمر فيم أفنيت ؟ وعن حب فيم قضيت وعن وجل متى أحبه ؟ وعن امرأة لم أعشها ؟ وعن

سفر كيف كان وعن القاهرة كيف ظهرت ؟ الشارع له «ونسه» وألفته في ليل رمضان ، حركة مطمئنة وأصوات حوارات وتمضية وقت وصوت المسحراتي الخشن ببطلة ذات ضجة وخطوات منتظمة (ولاعناء على الإطلاق) ينادى على سكان الشارع ويدخل صوته غرقنا وأذاننا بالأسسم ، يدعوهم للمقظة كلهم ، فيما عدا منزلنا فهو ينادى على منزل أخوالى باسمائهم تفصيلاً فهم أكثر شهرة لديه ، وكان أبى قبل خمس رمضانات سبقت يتسم حين يذكر اسمه أو حين نذكر أنه فعل حيث أن أبى لا يسهر ولكنى إذ أسهر الآن لا أسمعهُ أيضاً ينادينا ، الملاحظات الوحيدة التى يغنى فيها المسحراتى تكون في الليالى الأخيرة من رمضان حين ينشرح صوته ويتهدج أدأؤه .

— لا أوحشنا الله منك يا شهر الصيام .

وأشعر كآبة رحيل رمضان تحط على صدرى أأتلف مع الأشياء والأماكن والشخص وأحبهم وحين يرحلون أو أرحل عنهم أموت ألماً واعتصر جراحاً لكن لا الأشياء والأماكن ولا الشخصوس تعبر ألى أو تعزى فى حزنى .

وحين تغفل عيونى أخيراً ، أجده (أبى) يوقظنى إلى السحور ينادينا هماً ويحرك كفه فوق الفطاء على قدمى ، فأصحو متبهاً ، أرحف حتى حافة السرير وأعطى إلى الأرض ، نعود الصالة إلى الأضواء الزاهرة «والطليقة» على السجادة وضعتها ألى ثم تدخل إلى المطبخ بينما يدخل أبى إلى غرفة أخواتى ، فينادين فى عتمة الغرفة التى بددها ضوء الصالة

فينأقلن ويمضفن النداء ويواصلن النوم ثم يعود أبى إلى الصالة وهو يردد أسماءهن مُعلياً نبرة صوته متجهاً نحو المذياع يحرك مؤشره إلى القرآن الكريم بتلاوة الفجر من الإذاعة العامة ، التى تنقل شعائر الفجر من مسجد سيدنا الحسين ، فيقول أبى «رباه سنسمع صوت الشيخ الجميل ثانية اللهم أدمها علينا نعمة وتوفنا مسلمين» .

تعود ألى حاملة طبق الفول الرئيسى حين أخرج من الحمام فتتهلف بى أن أوقف أخواتى مرة أخرى وترفع من نبرة صوتها إلى مقدمات الغضب وهو تطرد آثار النوم الذى تبدد منذ سمعت جرس الباب يضغط عليه خالى يوقظنا للسحور فتذهب كل مداعبات النوم من عيوننا وتصحو إلى المطبخ حيث تُخرج الفول من «الدماسة» المشتعلة طول الليل ثم تتحرك نحو «الحبار» فتغسله وتقطعه ، وتخرج «القشطة» من التلاجة وترفع غطاء العيش الطرى المخبوز فى منزلنا وتبلل العيش الناشف حتى يرق ويحلف ، ثم تقشر البيض المسلوق وتضعه فى السمن بطبق واسع ومعه ملعقة من زبد منا أن يهرس نصيبه ، وحين تنقل كل الأطباق إلى «الطليقة» تكون أخواتى قد استيقظن ، واحدة منهن تعيد إحكام غطاء الرأس وثانية تبدأ فى قضم لقمة ، وثالثة نصف نائمة (فى كل مرة نذكرها ماذا فعلت على السحور ألى) أما ألى الصغرى فيكون السهر قد أضعف شهيقه وخففس قابليته للطعام وربما يستعيد كل هذا وربما لا (لكن فى الغالب يستعيد) وتنهض ألى لإحضار الشاى وتصبه لنا فى أنصاف أكواب لأننا لا نكمله أبداً ، فيما عدا أبى الذى يواصل

يقلته حتى آذان الفجر يحاور أمي ويحسبان الشئ وقبل الأذان يأتي أبي لنا فيسقيناً شربة ماء بعد أن نفيق لوهلة ، ثم يعود إلى أمي (تسلمت هذه المهمة برمتها بعد سفره) ثم يتعجلنا لأذان الفجر ، ونضحو مرة أخرى وأكون قد فشلت في استعادة النوم وانتظر نهاية الأذان ثم يبدأ كل منا صلاة النفل - خير من الدنيا وما فيها - ثم ننهي جميعاً وننتظر أبي ، أنا بجوار أبي وأمي وأخواني خلفنا (وأخي نائم لا يصل الصبح بتدليل قديم من أبي) يستغرق أبي في صلاته ونحن نتلملعل باحثين عن دفء السرير ، وعلى الصلاة ، يسلم أبي فأقف وأؤذن لإقامة الصلاة ، ويدعو أبي دعاء الأذان ثم يكبر ونضع أكفنا فوق صرتنا ، بينما تجذب أمي أختنا لي كي يستوى الصف ، في الليالي القديمة كان أخوالي يأتون لنا للصلاة خلف أبي ، وكنا أحياناً لا نستطيع أن نكتم ضحكائنا من وقار أحدهم المصطنع ، فيضح الخال الآخر بهمة نعلم منها أنه يكتم ضحكة فيزغزغ فينا حواس الضحك ونقاوم مستميتين خائفتين من أبي (في الحقيقة) ولكن عندما لا يستطيع الخال مقاومة كف الآخر التي تجذب بنطاله كي يسكت ، ينطلق في الضحك فنضحك كلنا ونسلم خارجين من الصلاة وأحياناً يلقي أحدها بنفسه فوق الأريكة خشية السقوط من الضحك ، وتعد نشير إلى خالي الواقف للصلاة ونحن نغلق أفواهنا بأصبعنا حتى لا يضحك هو الآخر ، بينما أبي يواصل الصلاة بصوت رزين مستقيم خاشع وغاضب ، أمي تلحق به بعد تماسك سريع ، ونبدأ جميعاً في العودة إليه بعد هدأة الضحك واكتشاف حرج الموقف فنعود

واحدًا وراء الآخر وعندها يحس أحد الأخوال أنه سيرتد إلى الضحك فيتصنع الجدة ويكبح ، ويضع كفه على فمه ماسحاً بلل الوضوء ويكون أبي قد ركع أو سجد ونحن خلفه وحين ينتهي من الصلاة نسلم وراءه متظرين غضبه لكنه ينظر إلينا في عتب ويقول متوجهاً بكلامه للكبار (الذين لم نكون نحن وقتها) .

- أمداً يصح فيعندرون ويلقون بنبعة هذا الضحك كل على الآخر ثم يضحكون ثانية ونحن معهم أما أبي فوحيداً يشتم .

منذ سفر أبي وأنا أؤم أخواتي وأمي في صلاة الفجر بذات طقوسها وعند سفرى وإقامتي أياماً في القاهرة ، تؤم أمي الصلاة ، وأحياناً تبقى وحدها ، بعد سفر أختي الأخرى وكسل الثانية ونوم الأخيرة - تبقى وحدها تصلي الفجر وتبتهل على نفي «البطانية» التي نفرشها دائماً بدلاً من سجادات الصلاة الصغيرة ، وأمي دائماً بعد الصلاة وحين تدخل جميعاً إلى النوم (اعتذر له واحاول استرضاءه كي يرحم فلقى ويأني) ، نجلس في الصالة حيث الأضواء قد أخففت ، والصمت قد حل ، والمذياع قد أغلقناه ، وتدعو الله بصوت عال بعد صلاة شكر يومية وتنادي الله أن يوفقنا وتذكرنا واحداً واحداً وتدعو لنا كلاً على انفراد بدعوات حارة ، وتبتل خاشع ، وصوت مرتجف عال وتوسل مخلص ، وكنت دائماً أسمعها - آخر من ينام أنا - وقد دمت حين ذكرى ولحت عند الدعاء لي وكنت دائماً أسال الله أن يتقبل بيننا أكون قد غصت في هومي الخاصة التي تخرج بأسنانها وتكشط كل شيء - أمامها - حين

الانفراد بنفسى قبل نوم أو وسط فراغ أو عند تخليق في كتاب ، فتبسط
أحزاني وأستلنى ولوى لنفسى وكزهى لروحى وضعفى أمام الناس ،
فكلما حضرت إلى سريرى واستدفأت بغرفتى وتوضأت بياء منزلنا
وسمعت حرارة أمى ، كلما استوحشنى البعد واستحضرت الوجوه التى
أحبها هناك فى القاهرة ، فإذا هى حسب التوقيت الرسمى لمدينتهم ،
كأنى أحبهم ولا يحبونى ، كأنى أذوب فى هواهم ولا يريدونى رغم أنهم
- جميعاً - حولى ويرغم أصحابى وأصدقائى ونجاحى والخطابات القادمة
من البلاد البعيدة ، تحببني عن الأحوال وتسالني أحوالى وتستغرب حزنى
وتدهش لطوله وعرضه وامتداده ، وتستفسر عن كل مقومات سعادتى
التي امتلكها ولا أعمل بها أولها ، أجلس على المائدة بجانب أمى ، أدعية
الإذاعة الدينية ، الطعام المقروش بالمائدة ، أطباق الأرز - بوصاية خاصة
لى - أسئلة عن زيادة السكر فى العصير ، كمية الملح فى الشورية شجار
بسيط حول ما يريد به بعضنا من أجزاء الدجاج أو البط ، وحين يكون أبى
غائباً يظهر فى رنين الهاتف قوياً سريعاً قبيل الإفطار فنسمعه قادماً من
البلاد البعيدة يهنئ بـرمضان ويسأل عن الصحة والأحوال وفى كل مرة
نسأله :

- متى تفطر يا أبى ؟ ياه بعدنا بساعة ؟ أخبار الجو هناك ؟ من يعمل
لكم الإفطار ؟ تفطر مع من يا أبى ؟

شرب الماء ، قعود المائدة ، تذكر الأب ، تساؤل حول افطارى غداً فى
القاهرة أم هنا ؟ ، تعليق على مسلسل اذاعى ، تسرع أخيت إلى الوضوء

قبل رفع أطباق الطعام ، تشاجر آخر بسيط حول هروبها من حمله ،
جوابها من بعيد أنها جلبته وعليهم رفعه ، رقرقة الماء من الحمامين ،
اصطكاك الأطباق على المائدة وفى المطبخ ، وشيش نسمعه عند اقترابنا
من المطبخ للشاى يحاول الغليان ، السجاجيد تفرش للصلاة المغرب ، فى
غرفة أخرى ، غطاءات الرأس على الأرائك ، أعكف على طبق الكتافة ،
تغليب فى محطات المذياع ، إختلاط صوت الإذاعة بصورة التليفزيون
يُفتح الآن ، أكواب الشاى فى بخارها الأخير على الأرض ، تمتد الأيادى
لها تضعها هنا على مائدة صغيرة أو فى زاوية ما ، ضحكات تنطلق من
الأنواء صادقة حول برنامج مرح فى التليفزيون ، أذان العشاء ، كان أبى
يقف مرتدياً جلبابه الأبيض ويتأمل التليفزيون فى عرضه لفقرة ما حتى
يأتى الأذان بشارته المعلومة فيلقى التحية ويمضى للصلاة بينما ألقى به
بعد دقائق أكون قد خرجت من الحمام ، على ماء الوضوء وأعبث تحت
السرير باحثاً عن الحذاء .

المسجد كبير متسع رحب متللاً ، الأضواء ، مشرق الجوانب ،
أخضر الفُرش ، مزدحم عن آخره ، فى تكالب الناس وتدافع المصلين
يلحقون بالإمام قبل الركوع ، كان المسجد ممتلئاً إلى نهايته ، يبدأ هكذا فى
اليوم الأول من رمضان ثم يتفلس الزحام وتنسحب الصفوف حتى يفرغ
المسجد إلا من صفوف قليلة تخط حظ الناس من الحماس والصبر .

وتؤثر لرحيل رمضان وكان أبى دائماً فى الصفوف الأولى وكنت دائماً
أخرج بعد صلاة التراويح قبيل الوتر ، فى حين يستكمل هو الصلوات

كلها ويصحب أصدقاءه ورفاقه مشياً في حوارات العمل ودعابات الكبار وفي السياسة وآفة الخلاف العريى ، ينأى أعود إلى البيت وحيداً إلى تليفزيون ، كتاب ، كتابة ، هاتف إلى القاهرة ، إجابات باردة تلفائى ، تخذل ترقبى للمصوت الآخر ، تهزم دقائق قلبى وتلم خسارات الدنيا إلى كتفى الأيسر ، بسر جنباً إلى جنب .

تطلب أمى ألا أرحل غداً فنحن مدعوون عند خالتى ، الدعوات سعة رمضان في العائلة حين كان والدى موجوداً في رمضان ، فالكل يدعو الكل ، وهرج الأطفال وتزاحم الأنفاس والضحكات ونوادى الأعوام الماضية والحاحنا على خالى الكبير بأن يدعونا فيقول بلهجته الحاسمة الضاحكة - طبعاً بإذن الله انتم مدعوون عندى يوم ٣١ رمضان وعليكم خير .. نضحك ونتهمة بالبخل ، فيجيب :

- بخل ، يا خير أبيض ، رينا موسعها علينا والفلوس كثير أنا لا أعرف ماذا أفعل بها يا شيخ .
ثم يضيف مستدركاً .
- معك ثلاثة جنيه سلف ..

ويمد كفه حتى صدرك ثم ينغزه فيك مبتسماً أنا بخيل ، طيب أمك أسما إليه ١٩

أطباق ميكرونة متخمخة ، أرز مبثر تحت الأطباق ، إمتداد الملاعق وتفاوض حول من يقوم بتوزيع قطع الدجاج ، والطلب من أمى أن تقوم

بالمهمة ، فتمتنع ، وتدعو ابن عمى صاحب الخبرة المدهشة في الطعام ، فيقدمها عليه ، أنه لا يصح وهى موجودة ، فتفرغ للمهمة في حرص وسؤال دائم عن فلان هل أخذ ؟ فلانة هل نسيتك ؟ وتركز على الأطفال الصغار ، من فوق حجر أمه ، أو بجوار أبيه ، أو من يتسلق كتف جدته ، أو من يتصنع الوقار ويتابع توزيع الأنصبة خفية ؟ أو من يتشاجران معاً على مكان فارغ بجوار أمهما ، أو من يرعاه أبوه بشكل خاص وتدليل مفرط ، ثم تمسك بالصنية الفارغة في يدها وقد ظهرت قطرات مرق على يدها .

هل أخذ الجميع ؟

فتهتف جدتى

- وأنت يا ابنتى أين نصيبك ؟

فترفع أمى في سرعة لتهدئة قلق الجدة قطعة صغيرة .

- أهو يا أمى .

فتغضب جدتى بعينها لأن أمى قصرت في حق نفسها .

- طيب هل هذا يصح ؟

وتمد يدها إلى قطعة أخرى تعطيها لأمى فترفض ويتحاوران بينما أرفع المعلقة إلى فمى محلقاً في فراغ نهاية الصالة التى نجلس فيها حيث باب يؤدى إلى الجنيبة وحيث صورة قديمة جداً عملاً لتاريخ العائلة ، تضم

خماس ديتہ رہا لازال هناك دين ولكن لا يوجد إلا الخسارة فقط .

يخسرني الفرح ..

يخسرني منذ أمد ، منذ تعلقت فرحتي بالآخرين ، حين انسلت ورحي من جروحي وتركت ضهادتها لدى وجوه لم تعد كما كانت ، لم تعد أصلاً ، وحين أعود إلى المدينة يخسرني الفرح ..

حين أستكين للهزيمة وللوحدة وتذكرني وجوه الأهل الدافئة بوجوه أخرى باردة ثلجاً ، رائحة البيت تجذبني إلى تذكر رائحة تركتها في القاهرة رائحة احتراق لحم على نار ، وحين أقف عند حديقة منزلنا الصغيرة ، أقتز السلاط المودية إليها فتفزع العصافير المحشدة على الشجر فتقفز هاربة ، نازكة زهر الليمون على الأرض وأوراق الجوافة الجافة البنية ، حبات الجوافة الرطبة ، ووردة حمراء مهتزة على عودها ، وحية يرتقال صغيرة مغطاة بالورق الأخضر ، وأحس لحظة الغيب القادمة ، وتدقني في الشعور بالرحيل ، أكره الرحيل حتى ولو كانت الشمس في مغرب رمضان ، . أكاد أبكي هذا البكاء المر الذي أرتوت به جفوني في ليلة القدر ، حين قال الإمام أنها ليلة تُفتح فيها أبواب السماء ، فحاولت الدخول إليها ، البيت كله وشوشة تلاوة وأصوات تكبيرات متداخلة والأفراد كلهم يصلون في الغرف ، حتى غرفة الإستقبال ، وأبى في الصلاة والتليفزيون مغلق تماماً ، وأمى في غرفة النوم وأخواني متوزعات وأنا فوق سجادة صلاة خصتها أمى لي حين أخرجت سجادة

أفراد العائلة من كل شرق وغرب منذ عشرين عاماً أو يزيد ، جلوساً وقياماً ووجوهاً صغيرة ، فنية وشيوخ وشباباً ، وإتسامات ووقار وتسلفات رؤوس من بين الأذرع وصعود فوق مقاعد للظهور في الصورة ، تلك التي تمزقت أطراف نسخة منها ، وبقيت أخرى لدينا ، وإذ بي جالساً على ركبة جدتي ومن الناحية الأخرى أختي الكبرى كنت ارتدى بذلة ظهرت بها نفسها في صورة مستنداً على كتف أمى فوق أريكة ، . تلك الصورة التي أراها أمامي وحول في ضلعي الأخير الأخرج حين أمشي في مغربية القاهرة قيل الأذان ومعنى صديق أو رفيق ونبحث عن مكان تقطر فيه ، نتداول ، وإحساس كتيب يتسلكني ، يخيظ جروحي بمسار يسحب أنفاسي إلى الدخان ، القاهرة في هدوء لايعاني منه إلا الغرباء ، أشم رائحة الطعام المطبوخ على سلالم بيت ، أو في ردهة إلى مكتب ، أو من نافذة واطئة ، أتوقف شاعراً برودة ورعدة ويأخذني الحنين إلى بيتي ، وإلى دار برائحة الطعام وتوزيع الأطباق على المائدة وأخي يطبخ في الفراغ بالضجيج وأمى تنادي على أختي وهاتف يرن وتلاوة قرآن المديح والشارع الفارغ ولحظة الوقوف في انتظار فروق التوقيت ، والأطفال يكبرون لتعجل الأذان في الشرفة .. وجلسة مابعد الإفطار أمام التليفزيون ..

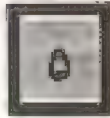
ادخل إلى محل عميق الانساع مزدهم بالوجوه الغربية والأجنبية والمصرية فاطرة رمضان ، هؤلاء الذين بات التعامل معهم عادياً والنظر إليهم طبيعياً ، منذ غروبي عن المدينة الصغيرة لم يعد فاطر رمضان

صلاة جديدة لما تعذر الاكتفاء بما هو قديم ، وكان الدعاء الذي حفظناه
 جيعاً «اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني » كانت السيدة
 عائشة رضي الله عنها قد سمعت الرسول ﷺ يردده في ليلة القدر التي
 نلتبسها في العشر الأواخر من رمضان والتي رآها حسب حكايات
 العائلة القديمة خال أمي عندما خرج إلى السطح في البلدة فأنكشف
 عنه بصره فكان حديداً ، وطلب من الله فتحقق .. هل أنجب بعد
 توقف؟ هل اغتنى بعد فقر ؟ لا أذكر لكنه رأى ليلة القدر ، ومن ثم
 فنحن يمكن أن نرى ليلة القدر ، هكذا كنت أقول لأبي وهو يحاول
 اقناعي أن مسألة الرؤية متعذرة وأن القبضية انكشاف روحى ومغفرة إلهية
 ولكننى دعوت وبكيت واتسابت دموعى أنهاراً ساخنة وخمنت تلاوة
 القرآن كله ليلتها ولم أر ليلة القدر .

ولم أجرب المحاولة مرة أخرى .

www.liilas.com

منتديات ليلاس



الطر

القطار الخاطى، يصل المحطة

السيارة نفر من السكون إلى سرعة وثيدة وهنة في ليل مطير حالك لا يكسر ظلمته سوى أضواء السيارات الوجلة ، تمر على أرض أسفلتية زلقة في الطريق الزراعي السريع الضباب يغلف زجاج النوافذ والمتاحاتن فحاولان في جهد آلى متواضع إزاحة حبات المطر المتراكمة المتعاقبة في غلظة حاجبة فوق زجاج السيارة الأمامي ، تسقط صفوف من المياه المتكتلة على أسفل الزجاج ويبقى مستطيل نظيف من ورائه يبدو الطريق والشجر المعلق في السماء على الجانبين أهراماً من العتمة وحفيفاً يضيق متلاشياً في أصوات عجن العجلات للبرك المائية المقروشة بفعل المطر ، وهواء ضارٍ ينفذ من ستيمر وحيد تركه السائق مفتوحاً في النافذة المجاورة له ، يلسع أنوفنا ويرجف شفاه المسافرين المتقلصين في ملابسهم وخوفهم .

يعبر السائق سيارة ما من اليمين ثم يسير متمهلاً ثم يلعب خلاء من السيارات والمطر فيدفع السرعة للصعود فيكتشف سيارة على اليمين فيشق طريقه إلى يسارها بجانب الجزيرة الرملية والحجرية المقروشة

بشجر ناخل بتوسط الطريق ، لكن سرعته تخفت وبطء يسيطر على السيارات كلها حتى التوقف ، فيهتز السؤل في أجسادنا مع تمتع وارثك مؤقت ثم تبين مسافة للمعبور يجتازها السائق لكننا نلحظ جميعاً سيارتين مصطدمتين في الجزيرة وأبواباً مفتوحة وأسقفاً معطمة وجثاً ملقاة ودماء تسيل وأنات حادة تخرط آذاننا لشابين نائمين على أرض المطر الأسفلت ينطلقان الأمة محروقة موحلة بالمطر والطين .

سائق السيارة المصطدمة منحشر بين مقعده وعجلة القيادة ، صدره منطبق وعنقه ملتوى ورأسه مدلاة على كتفه وناس متحلقون حوله ينزعون باب السيارة المنطبق ويلقون به إلى الأرض ويدخلون بأيديهم وأذرعهم يرفعون عجلة القيادة عن صدر السائق ومطر متسرب من الواجهة المنكسرة إلى عجلة القيادة إلى رأس السائق المصاب - يبلل الدم والماء أيدي المنقذين - وتخفض أضواء قادمة من سيارات على الجانبين .

هو المطر ...

تناديني أخنى وهى واقفة على عتبة الشقة تنظر إلى السلام المؤدية إلى طابق تحتى ، بينا السلم مكشوف للسماء ، له سور صغير رفيع ويطل من الناحية الأخرى على الممر الضيق المؤدى إلى بوابة البيت (بيتنا القديم الذى كنا نكنى إحدى شقيقه) أسمع صوت أخنى بالفرح المدهوش وهى تلج قدومى وتعود برأسها من فتحة الباب إلى الداخل تنتظر تحمسى .

ينفتح الباب على ضلغتيه فتتهجر أجنحة الهواء مرفوفة على أجسادنا تحتل موقعنا وصالة البيت من ورائنا ..

- انظر هذا مطر غريب علينا لأول مرة فيه تلج والله تلج انظر جيداً .. هنا .. لا تتضح أمامى الأشياء والبرد يفلت أعضائى ويسلمها للمرض قتهبط الأخن السلام حتى سلعة رئيسية مستغيلة وتسلك بأصابعها الصغيرة حبات دقيقة من تلج هش وتصعد وقد بللتها الأمطار واغرقت كتفها وغطاء رأسها وجوزياً ترتديه في قدميها .

- انظر .. هذا هو الثلج ..

هو المطر ..

هبطت من السيارة معى حمولة أحزاني كلها وفوق رأسى المطر والبرد والعتمة ، آثرت ألا أهبط إلى الطريق المختصر بين الخفول المفضى إلى شارعنا في دقائق حتى لا أعبر ظلمة مخيفة وطمياً مغرقاً في هذا الليل ، مضيت نحو المزلقان عابراً إشارة التى تظن برنين متظلم وضوء أحمر مدهون بالماء ، وأسير متعجلاً فوق حديد القضبان وحجارته وإلى ميدان المحطة الصغير ، مشبع بالمطر والطين ، تحطه عجالات السيارات فتصنع من الطين المتراكم شوارعاً وأزقة مرتفعة ومنخفضة مستقيمة وملتوية ، تبني أشكالاً من معمار غريب يفصح عن خرافات للعبون المحدثه ، يفصح رموزاً للعبون الوجلة ، الصمت يركب المدينة والشوارع خاوية في هدوء قبورى ، لا شىء سوى وشيش المطر الذى يهدأ لحظات ثم يعاود

هجومه الليل على الأرصفة الصغيرة يغطيها ماء يبرق مع بصيص النور
المسكب من مصابيح معلقة على أبواب الحوانيت ثم على الشوارع
بطيئها المصنوع من تراب ثقيل منهمل وبرك غريبة متسعة تمنع عبور
القادمين إلى الأسرة الدفينة ، أحتار أعم أسلك ، أين أمضى ؟ أبحث
عن ممر يمكن تجاوزه ، يستطيع الحذاء أن يفوت فوقه دون الغوص حتى
الرسفين في الماء العكر ، قطعة حجر - مثلاً - موضوعة وسط بركة تسهل
قفزها إلى أمن الطين بعد خطر الفرق ، المطر يسرى في أقمشة الملابس ،
أنسجة أثياب جلد الحذاء والحقيبة ، يعبء كفى ماء وينسلل إلى
صدري من فتحة غير محكمة ، ويلف عصى ونحمر له أنفى مقاومة
انفكاك المخاط ، قطر الماء المنهمر ينزل من شعري الخشن المبلول فوق
نظارة سميت عدستها الزجاجية وجعلت المشاهد كلها بمنزوجة بهيوك
الضباب على عيوني .

أكاد أنزلق بجسدى كله وتترنح الحقيبة في يدي فتلحقها رعدة
الكف ، ثبات المحاولة وتماسك البدن في اللحظات الأخيرة لكن الماء
الملوث يغطى جانب البطال والحذاء .

لديتى الصغيرة في أيام المطر رائحة الصمت ، طعم الانكماش ،
حين تغفو الأبنية والبشر وتنقلص الحيوانات كلها إلى حركة مكتومة خلف
باب وشروع مبكر للنوم تحت غطاء سرير وكمون مطلق للموجودات
جميعاً .

اختصر طرقاً نحو شارعنا فتخذلنى الحنكة فالطريق مصيدة للترحلق

والطين في طراجة المطر الأول للمطر ينتظر الأقدام المشبعة وجين
مشروع - وسط المطر والظلام والصمت - أن يكون هذا الخط الطويل
الملتوى من الطين ثعباناً أسود في الظلام ينهب قدمي ويجرى إلى الموت
في وحل اللبالي ، أو ربما تنفكك بحيرات الماء عن أيادي غليظة مكسوة
بالطين والماء المتصعب وعروق نافرة فتشدني إلى حفر عميق وضحك
ملجوم وأصوات مدفونة ونباح كلاب يعزز الخوف بالارتباك فجأة يخرج
الرعب المنتظر من ناصية ما .. كلب شريد تهتز بطنه المكسوة بطين نام
فوقه وأرجله مفروسة في وحل يتقل به في ماء وبرك المطر يقطر فوق
جسده ووجهه غير مكتمل الملامح في ارتعاش النظارة على الأنف كأن
الثلث لا بد له أن يكتمل المطر والظلام والكلاب ، حين جريت إلى أمي
كأن كل شيء قد استقر في التاريخ ، مررت من القرن إلى بيتنا أحمل
حقيبة بلاستيكية عملة بدورها بالخيز وحين لاسمت قدمي شيئاً طرياً
لياً عرفت أنها الأناسة كلب ضخم نائم عكرت نمته فتنهض مفزوعة
ينبح في قسوة وعدوت بكل ما في جسدى من خوف لكنه لحق به
أمسكت حوافره أخيراً بينطالي وحين أدرك أنه ينتقم مني كنت قد عبرت
امتاراً في شقة وكان قد تمكن من البطال فمزقه وأنا أبكي وجيران من
الأرباب والنوافذ صرخوا عليه وسجروا نحوه ، لكنني صرت الآن وحيداً
لما ، في المطر والليل ، وكانت عيونه مثبتة - هكذا شعرت - عند
حقيبتى وكفى .

فاصت أقدامى في برك المياه ووحل الطين وتخطت الحجارة وغموض

الأمكنة وعممة مسيطرة على مسافات متباينة ، رأسى تأخذ زاوية حادة نحو الكلب ، ولهى يزداد والمطر يسكن لثوان والليل يغرقنى ومثل حركتى وخطوات الكلب منتظمة دقيقة تن فوق الطين وتثير ماء فى اصطدامها بالبرك وتخط آثارها على الشارع الموحل ، على يمينى سور لبنت كبير ومدق ضيق ناحل خال من الماء أسير عليه فتنهزنى انحناءاته ولكن الكلب يسير جانبي موازياً لى فوق الماء المقروش على الأرض .

هل اقترب بيتنا ؟

لا أحد فى الشوارع ؟

(كان كل شيء انسحب للمواجهة الوحيدة بينكما) .

على غفلة من إدراكى ، علمت ، كانت حلقة من كلاب على ذات الوحل والطين والماء والتشرد قد تجمعت مع الكلب الأول وساروا جميعاً جوارى ، خلفى ، بموازاتى وأنا مرعوب حتى توقف الرقة مدفوع بعار الهزيمة ، مجلل بمرارة شرسة تعطل تفكيرى عن أية محاولة للفكاك ..

الأقدام ثقلت بالطين على الطين ، ترنعت خطواتها بالمطر على الماء ، وتكاثر وتكتلت والتصفت أجسادها وأختلطت سيقانها وأهتزت ذبونها فى وعيد وعديد وفكرت لوهلة أن أنف لكننى لم أجرؤ ظننت أن الموت جوار بيتنا أكثر رحمة من الموت بعيداً عنه وأن ملائكة مرسلين من الله سوف يأتون عند بدنى ، فيتدافعون ، ملائكة الفرح مع ملائكة الحزن ليهم يحملنى إلى نهايتى ، حتى يفصل بينهما حل وسط فيعدون المسافة

بينى وبين بيتى فإن كانت أقرب من مسافتى إلى ناحية الشارع أذهب إلى موت فرح وعداء جراح .

عبرت الناحية والنفت ثانية فلم يظهر كلب خلفى فاشتعل فى صدرى الهدوء ثم جريت بأقصى ما فى قدمى من سرعة ، يلوثنى الطين والماء وأكاد أنعثر وأسقط وأستند على جدران بيوت متشققة بالمطر مبلولة مفسولة بهترى . طلائها وتهاوى قشرته على الأرض مدغدغة ثماماً ، مسحوقة فى الماء والطين الذى يكسر أسفلت الشارع وحفره التى صنعتها التطورات الطبيعية لكل ماهو مرصوف فى الوطن .

أحس فى انفراد مدهش عرقاً يمتزج مع مطر على جبهتى ووجهى حين ضغطت على جرس البوابة فدىق صوته ، أعرفه رنيناً نيبلاً فى الصالة وحين تحركت أقدم خلف الباب تسأل من ؟ أجبت فى زهر ، خرجت أسمى ملفوفة فى دنارات شتوية ثقيلة وأصابعها تمسك بالمفاتيح ، تتجاوز الأحذية الملوثة بالطين الموضوعة أمام باب الشقة ، تمر السلالم الصغيرة المؤدية إلى البوابة الخضراء تدوس على آثار المطر على مدخل بيتنا .

- حمداً لله على السلامة ..

وحين ظهر وجهها من خلف البوابة واضحاً نقياً محمر الحدود من دفء مصنع فى الداخل ، ظهرت عند الناصية قافلة الكلاب تجرى فى سرعة سيارات لعبة الأتارى نحوى ، ضغطت أسمى على مقبض البوابة فأصدر صوته الأليف ودفعت البوابة وأنا التمس من عين أسمى انقاذى

من سعى الكلاب النابحة خلفي ، انزلت في حضنها وهي تعيد اليوابة
إلى الانغلاق وتسال ..

- يا ساتر ما كل هذه الكلاب .. هل كانت خلفك ؟

كل هذه الكلاب .. وغيرها - كانت خلفي ، لكنني استيح الصمت
عل المزيمة . أدخل بيتنا ، هذا الشاطئ العجيب ، الذي يشارك البرد
علينا في ربيع لانعرف من بتقاضاء ، رائحة المطر تغلف كل جدران
البيت ، أنتى تنام ملفوفة في أغطية أمام التلفزيون وأخرى تجلس على
وسادة مستطيلة أمام مدفأة من الغاز تقليدية الطراز وأبقية المظهر تشع
دائرة من دفء يصدر من رأس سلكية حمراء تشبه نصف قرص الشمس
في المنيب ، أنتى يضطجع على سجادة فوق الأرض رغم تأنيب أمي
المعتاد ، وأبي فوق الأريكة المقابلة ناعس يرتدى «روب» مخطط أخضر
وحول عنقه كوفية بنية وفوقه غطاء صوفى يكسوه كله وعند التقاء الصدر
بالعنق يضع مدياعاً صغيراً بحجم الكتف يصدر أصوات بقايا نشرة
إخبارية أو تحليل ما ويواصل بغناء وكلها حاول أحد أن يغلقة طالما أن
أبي نائم وبما أنهم يتابعون شيئاً في التلفزيون ، يستيقظ أبي مفاجئاً
ويرفض هذه الفعلة لأنه يتابع البرنامج الإذاعي ، ثم يرفع صوته قليلاً
رداً على ما حدث ثم يستجيب لإلحاح أمي أن يتعد عن البرد وينام في
غرفته .

عندما أدخل بمحضتي البيت وبمحميني - وفي البيت رب يجمع - كلهم
تدبروا من البرد بالثياب الثقيلة ، وحين أخرج من الحمام الساخن ،

أجدهم قد تفرقوا إلى النوم ، ومن بقي يبدأ مرحلة البحث عن المطر ،
فأنتى يقف خلف نافذة النور يستمع بصوت دقاته على الأرض ، فإذا
نواصلت وانتظمت فهذا مطر خفيف ، أما إذا اندفع واشتد ومسح
الصمت تماماً قبلت بصوت عال وخطوة بقدميه وقلعة للإخبار بالجديد
المفرد .

- مطر شديد جداً غداً ستكون الشوارع ألين من اليوم .

أما أنتى الأخرى فتحاول التأكد فتذهب إلى الشرفة المظلة على
الجنية حيث تعرف من اتصال المطر بالشجر ومن إحتزاز الورق الأخضر
من هدير الريح ، كم المطر وكيف ؟ وتوقع غده ؟

ثم يفتح باب غرفة نوم أبي المظلة على الحديقة تخرج منها أمي .
- المطر عزيز ، الدنيا غرقت .

يرد أنتى .

- حلو .. لن أذهب للمدرسة غداً .

فيأتي صوت أبي قوياً دافئاً مملوء بالنوم أيضاً

- يا حلوة ، ما هذه الفوضى .

لكن أمي تستمع .

- لا أحد يذهب للمدرسة في يوم مثل هذا ، أنت ناظر وتعرف ؟

- أولاد أي أحد لا يذهبون ، لكن أولادى يعرفون قيمة المدرسة ..

تدفع أختي صدر أختي بكفها .

- هل يعجبك ذلك ؟

يضرب قدميه في الأرض .

- لن أذهب الفصل يكون فارغاً وزملائي كلهم يغيبون ، بالذمة هل يعرف أحد التحرك في شوارع غرفاته وكلها طين .

حين يهبط المطر من سماء مدينتنا إلى أرضها ، تتجمد أشياء كثيرة فيها إذا كان غزيراً متواصلاً ، ليلة واحدة من المطر كافية وكفيلة بسقوط البلد تحت طائلة العجز ، وكنا لا نذهب إلى المدارس ، فمعظم التلاميذ والطلبة يأتون من قرى صغيرة تبعد عدة كليوات عن المدينة في سيارات لأحد عشر راكباً أو دراجات فقيرة ورغم افتتاح مدارس كثيرة في القرى إلا أن الثانوية العامة لم تنزل تحتفظ بهوفود القرى لها ، كما أن البعض كان يفضل مدارس المدينة .

ولما كان المطر ثقيلاً ، كانت المدارس تخف تماماً وتختفت جداً ، فلا صفوف ولا طابور صباح ، لأنه لا أحد يقيم صفين ، الأتنية ملأى بالماء والأحذية الملوثة دمرت النظافة والماء يفرض دوائر على أسقف الفصول ويبلل المقاعد والأدراج ومدوسون كثيرون لا يأتون من القرى أيضاً أو يتكاملون في المدينة ، فنفسج في فرضى منظمة ومعروفة تُسمر في العبث والانتظار والندم على عدم مشاهدة فيلم الصباح في التلفزيون أو مذاكرة درس ما ، وكان والدي يعود من المدرسة فخوراً دائماً بأن أقل نسبة غياب

في مدارس المركز كله كانت في مدرسته لحرص المدرسين والطلبة على الحضور والانتظام رغم أى ظرف صعب ، وأنها المدرسة الوحيدة التي أتمت يومها الدراسي دون اختصار أو إلتباس .

لكن أكثر ما يثير الطغينة ضد المطر هو إنقطاع التيار الكهربائي في ليالي يشتد فيها هطولُه حين ينخطف النور من المصابيح ونصاب جميعاً بخيبة أمل ، الظلمة تبددها ابتسامة أبي أو ضحكة أختي ، لكنها نفل ظلمة تمنع عن القراءة والكتابة ومصافحة الوجوه أو الاستسلام للتلفزيون ، تقوم أختي نحو المطبخ تبحث عن عود ثقاب ، يأتي هبت النور الخافت من هناك تبحث عن لمبة جاز تجاوزناها بعد مرحلة وأحضرنا مصابيح برتنية وتعمل بالغاز وكنا نبذل جهداً في أحكام اشعالها وحين « تهب » شعلتها في هذه القماش البيضاء المتصقة بها مثل الإصبع أو كمثرى الثريات تضيء المكان بنور مستمد من ليالي القرى القديمة وسراقات الاحياء الشعبية تنادي على الأهل أن يشاركوا ، وكان وشيشها جيلاً فوق المكتب ونحن عاكفون على تدارس أو مذاكرة ووهج ما من الدفء ترسله من خلف الزجاج المحيط بالبرتنية ، وخضار جسد الكلوب يبرق مع النور المشع منه ، وفي ليلة كهذه سمعنا نغير سيارة تتمهل أمام منزل جدتي واحتكاك عجلات بأرض ومطر على سطح سيارة واقفة وخرجنا لنرى خالي واقفاً مع السائق يعطيه أجرته فاندفعت نحوه بصفر جسدي ونحول بدني ، كان مرتدياً جاكيت يصدر صوتاً يشبه صوت كرمشة ورق شفاف حين تلمسه الأيدي أو تحتك به

الأصابع المرحية المعانقة وكان خالي قد أطلق له شارياً دقيقاً بنياً فوق شفوية لأول مرة ، تذوقت دفة صدره الذي عاد لي بعد غياب شهور قضائها - وهو الطالب الجامعي - عاملاً في إحدى الورش في الأردن وحين جاءنا في البيت كان ضوء الكلوب ينسكب على زاوية من وجهه أحاول أن ألقها ، غربة علفت بخد ، وحزن ما ركب فوق شفوية (نيا بعد وحين يمر أحد عشر عاماً سيفول لي خالي أنه لم يدنح في هذه الغربة إلا مائة وخمسين جنيهاً مصرياً فقط لاغير تعذب هناك ظاناً أن شيئاً ما قد يحدث وهو طالب غريب يريد الإدخار لزواج من يحبها ، وتزوجها ، دون أن تسهم غربة هذه الشهور ولا المائة وخمسون جنيهاً) .

لكننا استبدلنا هذا الكلوب في شئاعات ثلاث بلبات الجاز ثم جئنا إلى أقصى تطورات الإضاءة في ليالي النور المنطفىء ، هذا المصباح الذي يشحن بالكهرباء وحين تنقطع بنير لنا ويرسل أشعته المدخرة المشحونة . وكنا أحياناً نستغنى عن هذه الإضاءة كلها ونجلس كسالى في الصالة نلعب ألعاباً شفهية أو نلغى نكتاً قديمة أو نحضرن أحد الأخوال فيضاحكتنا ويثلو الذكريات بعضها معاد ونجلجل ونستدق بالمرح وكان ابن عمتنا يحكى عن خوفي من لعبة قديمة كان يداعبني بها صغيراً حين يلعب بأصابعه أمام نور المصباح فيرسل ظلالاً لأصابعه على الحائط فأظنها شيئاً مخيفاً يسير عليه فأخاف وأرنج ويضحك معنا وهو بعيد ما كان يقوله لي كي أهدأ بالاً وأعود من خرق .

هو المطر .

حين عدت من عند صديق لأبى صافر له وكان المطر غنياً غليظاً لم تعرفه المدينة (في كل مرة نقول ان المدينة لم تعرف مطراً كهذا وفي كل مرة تعرف المدينة مطراً أكثر من هذا) أوقفت سيارة نصف نقل كانت تعبر المزلقان وطلبت منه أن يوصلني معه إلى شارعنا ، الطلب غريب في مدينة صغيرة لكنه عادى في مطر كثيف يعطل السير ويبطئ السرعة ويشن ضجيجاً للسيارة العابرة وودعت الرجل وصافحته شاكراً وحين دخلت إلى البوابة أخبرني أختي أن أمي ذهبت لتوصل أختي إلى محطة الفطار لتركب إلى الاسكندرية ، فانطلقت تحت مطر غزير عنيد أيسس الماء وكسائي ولحقتها تيران في مدق بين الحقول نحو المحطة ، كان كل شيء غارقاً في ضباب وضوء نحيل وشمس مخفية وذروع مهتزة من نقل المطر واشتداد الهواء وكانت الأرض ملوثة طيناً وماء وكنا نعبج بأقدامنا بعد فقدان الأمل في الحفاظ على آخر بقايا النظافة في الأحذية والسياب وناديتها فلم يسمعاني ، أمي تحمل حقيبة أختي الخفيفة وفي يدها مظلة نسائية أخرجتها من الصوان بعد لأي من البحث والغضب ، نرفعها فوق رأسي أختي لتغطيها تماماً بينما تكشف جزءاً من رأسي أمي للمطر الساحق . يبط فوق كتف معطفها الأسود أختي تحمل حقيبة ملابسها وأشباه الكلبة الثقيلة ، لم يسمعاني فتعجلت السير حتى أوشكت على الترحلق وقد اختفت تفاصيل كثيرة من عدسات النظارة فكنت أسحبها بكفي وأصابعي حتى وصلت إليها قبل التماس رصيف المحطة ضغطت على كتف أمي فانتبهت وسألت في حنان عجائب .

ـ بما الذى أتى بك يا حبيبى ، كنت قعدت ترتاح من مشوارك .

ضاحكت أختى ونحن غرقى فى حزن السفر الأسبوعى السخيف وزاد المطر من بلاته وسخفه صعدنا للرصيف واحتسنا بالمظلات الأستية وحين تأخر القطار قلقتنا وأعلنت أختى أن لديها محاضرة هامة جداً (الذى هو السبت فى العادة) ولحت البرد على خديها حمرة ، وحذاءها يدق على الأرض وأمى جالسة واضعة كفيها على حجرها وأنا أنلفت وصرت مطالباً بجواب عن أسئلة هل يأتى القطار ؟ متى ؟ ماذا نفعل ؟ حال هيئة السكة الحديد فى مصر لماذا لا أكتب عن تأخر القطارات فى مجلتى ؟ وأداعبهم حاكياً مقولة صديق سفر أن الاسم الحقيقى لرمز هيئة السكة س ح م هو سك حمر مصر فتتزعج أختى ابتسامة ويهز أمى رأسها وحين يدخل القطار بطيئاً إلى المحطة لا يتوقف وسط اندهاشنا وتقذف أمى حقيبة أختى الثقيلة عند باب عربة ٧ حيث تذكرتها المحجوزة ، يصرخ عامل محطة فينا على الرصيف .

ـ هذا ليس قطار أربعة إلا عشرة .

يستيقظ رجل على صدمة أمى من تورطها بقذف الحقيبة ووسط ارتباكنا والمطر منسى فى هزيمتنا يقذف رجل واقف على باب عربة ٧ بحقيبة أختى فأجرى لها وأجيبى بها وتهمس أمى .

ـ الحمد لله .

ويأتى قطار الرابعة فى الخامسة والربع طبعاً وأعود أنا وأمى تحت مظلتها فى المطر تسألنى عن صديق أبى .

وحين يأتى صباح اليوم التالى للمطر تفزعنا حقيقة أن علينا الصعود إلى السطح كى نترج المياه الراكدة عليه والمسكرة فى منخفضاته حتى لا تتخلل السقف وتسقط فى البيت قطعاً وبللاً .

نصعد أنا وأمى وأخواتى مدكوكين من البرد وضامرين جداً رغم الملابس الثقيلة التى تنكشف الآن عن أرجلتنا ، شعربنا حتى ظهرت بطن الساق وأمسكتنا بالمساحات ، أدفع الماء عند منخفض وأمى فى مثابرة وإيمان تخرج الماء من فتحة الشقة على السطح إلى الشارع فنسمع انسكاب الماء بعد ثوان وعلى وجوهنا علامات الجذ والصبر والجهد المرهق الذى يشى ظهورنا ويغنى أعناقنا والسطح كبير متسع والماء غزير لا ينتهى وحين نبأس من دفع الماء نلجأ إلى دوراق المياه البلاستيك نملأها بالماء ثم نسكبه فى إناء أكثر إنساعاً حتى يمتلئ ثم نرفعه من أذنيه إلى حافة السطح فنلقيه على أرض الشارع المبلولة سلفاً .

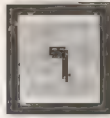
وكانت أخواتى قد كففن نهائياً منذ فترة عن دفع الماء نحو الجنية عتظفين بتوصية أبى المسافر ألا نلقى ماء من فوق السطح ، حتى لا ينكسر فرع شجرة أو تسقط ثمرة قبل آوانها حين يصطدم الماء المتدفع بالخضرة الغضة الخنونة وكنا فقط ننظر من فوق السطح على الأخضر الزاهى فى الجنية بفعل المطر وقطرات من الماء تبلل الأوراق والفروع والأرض طمى حقيقى والحشائش الصغيرة منكفئة على أوراقها بفعل قوة المطر .

وكانت على السطح المقابل نفس الوجوه المتحدية للمطر فى ابن

عمتي وأبنائه الصغار الذي يمارسون عشق معاونة أبيهم (حين نكون صغارا فقط) في دفع الماء عن السطح.

وكنا نتبادل معهم وهم مشغور الأقدام مسحوا المساحات ضحكاً ومداعبات تنقلها تسائم الهواء البارد وتدافع الدفء من الصدر إلى الصدر وعلى مساحة الرؤية وحين تتجاوز سطح منزل نرى سطح منزل جدتي المنخفض وقد تبلل تماماً وغرق جداً حين انكشفت أغطية البلاستيك التي وضعوها في شتاءات سابقة تغطي السقف الطيني الخشبي من الغرق، نأكلت الأغطية وتعري السقف المعبأ بأعواد القطن البنية الناعمة ونفائف الحطب، كان المطر قد أغرق بيت جدتنا تماماً ولجأوا إلى بيتنا حيث اشتكت جدتي من غرق المنزل وسقوط المطر على الأسرة وتآكل طلاء الجدران وإبنة خالي تمسك بأعناقنا بلهفة تحكي كيف أغرق المطر سرير والدتها وقد بدا عليها القلق والتوتر وأصر خالي وزوجته على أن يبيتا ليلتهما في غرفتهما بينما نامت جدتي في سكون حزين في غرفة شقيقتي، نتكلم عن ضرورة تقوية السقف وتغطية السطح ثم تنحصر على الفراش الذي تبلل والمطبخ الذي غرق والطلاء الذي سقط.

كنا ندفع أثناء الماء على حافة السطح ونحن نستعد للإلقائه في الشارع حين ظهرت في أول الشارع سيارات مجلس المدينة البلدي تحاول شق طريقها من مياه المطر التي صنعت بحيرة كبيرة عميقة منعت العابرين من المرور في الشارع وكان جرار يكشط الطين من فوق الأرض الأسفلتية وهمسُ إلى أمي غداً يمكن أن أسافر للقاهرة.



العيد

هل وجدت الكرة؟

وحدانا .. وكان الشارع الأسفلتى يمتد تحت سفح الندى الصباحي
المغزول برائحة العيد - الذي هل - الخلاء في الشارع ممزوج برهية الصباح
المبكر ، السادسة الأربع صباحاً والكائنات لا تزال تتمطى خشية
للهبوط المفاجيء من أسرة الثبات ، وأمى تقف في الشرفة الأرضية تتابع
سيرنا المتعجل ، أنا وأخي ، قامت بانة في صمودها لتجاوزي ويسمعه
الطفولية ما تزال تزين وجهه الذي يدخل إلى الصبا بقوة ، فيه ملامح
جميلة من أمى وفيه سمعة طفولية عذبة لاسيا وعلى مشبكة مع طيش
وحقق صبياني يثير الحلق أحياناً والضحك التالي للحق دائماً ، كنا نسير
معاً وحدتنا ونظرات أمى تدثرنا من لسعة البرد التي تحجز الأجساد في
صباح العيد ، تشكنا فتسرى فينا بقدم العيد وضجته - وربما فرحته -
واحساس البرد - كما بالنوم - فوق مشجب قلوبنا ، لم نسم يوماً بالمرّة ،
تقطعت عادتنا طيلة شهر رمضان في السهر والنوم بعد الفجر ، وكان
البيت مقلوباً على عفيه ليلة العيد ، حين صار قدومه غداً مؤكداً وفتواء
معلنة فنحركات الأقدام والسيقان والأذرع والصراخ والضجيج والمناداة
بالتقصير والتأخر ووشوشات الهاتف وتدافع الزائرين لاستعارة شيء أو

السؤال عن أمر وتركبنا عصبية كما تتركب المقاعد مائدة الطعام الطويلة حيث تنعري الأرض من السجاجيد وقطعة الموكيت المستحدثة الزرقاء ، وتوضع الأحذية فوق المائدة تحت أقدام المقاعد في غير ترتيب وترفع الأرائك العارضة من الأغصنة الظاهرة بنقرات الخيوط فيها وتطريز الأبر في أعلاها وبها أثر سقوط الشاي على بطن الأريكة ، وصوت اندلاق الماء من قطعة الخيش التي تمسح بها أختي في غرفة مجاورة بصطك مع صوت صراخها على تلويث أقدام أخي لما نظفت والماء القادم متسرباً من تحت باب غرفة ثانية يدل على انشغال أخت أخرى في العمل الدؤوب وأني في غرفة الاستقبال يجلس على الأريكة الكبيرة يضمف السنانر بعد أن غسلت في موسمها الرسمي ويشك مثابكتها في الخشب المزين المعلق في الأسقف وهو واقف فوق سلم خشبي كبير يستند على الجدار في ثبات تشك فيه أمي دائماً وأنا أبحث عن مكان يديق بقراءة كتاب أو صحيفة بعد ما تعطلت مشروعات البقاء خارج المنزل والزيت احتمالات الركود إلى الأصدقاء واحساس واضح بكوتى بلا أهمية في ليلة العيد اللهم إلا شرف عدم تلويث البلاط بعد تنظيفه والماء منهزم من الصنابير في الحمام أو المطبخ أو في كلبها واصطدم الأطباق والصحن والأواني من رف إلى آخر ، وحفاظ أمين على عدم الإقتراب من «حلة الترمس» المكس في الماء المسلح والغطاء الشفيف يكر أصابع الكفنة المحورة الغريبة الموضوععة فوق آنية كبيرة للطعام .

أغنية ليلة العيد - التي آنستنا - يطلقها بث التليفزيون في إلحاح يتمم الشعور بالعيد مع صوت أو كلثوم القادم من أسطوانة مكرورة فوق شريط من الصور القديمة الرتيبة لظواهر احتفالات مبهمة في ميادين القاعة .

وحين تنقز الساعة إلى الواحدة صباحاً فجأة تبدأ نصاعة البيت كله في الانطلاق ، نظافة مثالقة ورائحة عطرة عبقة ، وأغطية جديدة لامعة ذات ملمس يكر فوق الأرائك والمساند والأسرة والأرض مفروشة مزدانة والحمام في لمعان نقي يتلظى بجهد أختي التي أولته اهتمامها والمطبخ منظم مرتب ومائدة الطعام مهتمة ومنظومة بحفرش جديد نظيف والجدران خلعت من آثار تراب أو غبار واغتسلت بالصابون والماء ورغوتها المتشرة «المكرميات» تتدل من الأسقف بعد غسلها فلمعت وأبيضت ، واغتسلت الفواكه الصناعية فوق طبق نحاسي أزرق من آثار البيت العتيقة وازدهرت ورود بلاستيكية في جوف «المكرميات» التي صنعتها أختي على يديها .

وتتداخل الرغبات في الاستحمام، كل قبل الآخر ، ونسمع من الصالة وشبش الماء واتسكابه وتشم البخار الزاحف فوق المناشف الخارجة على يئوس الشفقات وأخي - نحاول عليه للاستحمام مبكراً أو النوم مبكراً فلا يستحم مبكراً ولا ينام مبكراً - وسهرة التليفزيون التي غالباً مانستخفها ونشاهد بعضها - تبدأ في ابتسامات مصطنعة تؤدي دورها على أسوأ ما يجب - كأنهم على اقواء مباشرة وعشرون ألف بمثل ومطرب

يخرجون على الشاشة فقط ليقولوا لنا كل عام وأنتم طيبون والأمة الإسلامية بخير وأمان وسأغنى لكم بمناسبة العيد حاجة جديدة ثم انعاس يستولى على العيون من فرط التعب وحث الجهد ويتسرب الجميع إلى الأسرة إلاي ، حيث أفضى بقية الليل بحثاً عما يفعل دون أن يغرب هدوء نفسه ويستحضر حزناً غير ذفون كلما عنت له وحدثني ركني ورماني أرضاً ثم أتى فعله .

ثانياً بغير نوم حتى آذان الفجر وقرآنه وهبوب زحام خفيف على الشارع ثم ما إن أنعس حتى توقظني أصابع أبي لصلاة العيد ، منسياً هادئاً مرندباً بجلابه المكوى الجديد ، ذقته الحلقة اللاسعة ونظرتني المستشفة وحنان كفه وتعجبه الدفئ ، ثم بحثه عن ثمرة تعطىها له أمي في خروجها من المطبخ إليه في هذا الحضور الباكر الأخضر ، مرندبه ثوبها اللاتق بالعيد - طرزته أعنى بعد أن تشاركنا في تصميحه ومداعية أبي لها وتهنئة بالعيد لحدها .

- كل سنة وأنت طيبة .

ثم يقضم التمرة .

- اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت وبك آمنت وعليك توكلت ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر بإذن الله تعالى .

ثم يأكلها متساءلاً كل مرة .

- سبحان الله الذي حرم الحلال وحلل الحرام .

ويحسني على الإسراع حين يصر أحمى على مصاحبتنا فنخرج إلى الشارع مبكرين جداً ، يذف أبي جرس ابن العمه ، وأنادي خالاً من وراء باب جدتي الخشبي الأحمر المؤدى إلى مدخل البيت ، أسمع انفتاح بابه الداخلى وخروجه ثم قدوم ابن عمتي بأولاده الصغار منسربلين بجلاليب بيضاء ندية وطللة فرجة مشققة وأكفهم في أصابع أبيهم وظهور خال ثاني مورداً ضحكاته الساهرة والتندر على نوم خال ثالث حتى هذا الوقت واعتلاله المزعوم قبيل صلاة العيد ، يلوح جيراننا عابرين بوابات البيوت فنسلم ونصافح ونهني ونخر المسير ونفترق حلقات متابعة وأبي يقود تهليلاً خفيضاً يتابع تهليلات وتكبيرات المساجد المتلاأ في السماء الصغيرة .

الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، وكنت أحب جداً الشارع الأسفلني الطويل المؤدى إلى المسجد في نهايته ، يلوح ناس في هرولة نحو المسجد وحث لخطى الآخرين وظهور من منحنيات إلى الشارع الرئيس وطل من نوافذ وسلام من بعيد واقتراب لتهنئة ورائعة زكية مغموسة في الكلمات .

- وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

ثم نفحات استوردية احتفالية تنفلم تكبيرنا حين نصير جميعاً في المسجد الكبير المكتظ بالأبيض تماماً بجلاليب للمصلين وندافع

الأطفال وتخلق الإمام وصحبه حول ميكروفون المسجد يهتفون في أغنية عشق إلهية .

- اللهم صل على سيدنا محمد ، وعلى آل سيدنا محمد ، وعلى أصحاب سيدنا محمد وعلى أنصار سيدنا محمد ، وعلى أزواج سيدنا محمد وعلى ذرية (تسرع في الكلمات وتدمج أحرفها) محمد وسلم تسليماً كثيراً .
- الله أكبر ، الله أكبر ، والله الحمد ، الله أكبر لا إله إلا الله .

حين صحرت علمت أننا تأخرنا وأن بعض الأحوال رحل إلى القرية وأن ابن عمي وأولاده سبقونا مع صاحب له وانطلقت أنا وأخي إلى الشارع وحدنا وكانت نساء مرتديات ثياب الحداد الأسود حاملات أسبنة وأوعية ينطلقن نحو المقابر وكان أخي يسألني :

- لماذا يفعلون ذلك يا أخويا ؟

أحب طعم كلمة (أخويا) منه لكنتى لا أحرى جواباً ، ناسياً تكرار التكبيرات مع صوت المصلين القادم من المسجد البعيد .

الغدوة الرؤوف في البيت كله يُضجخ صباح العيد حين تعود محملين بجميع الصحف اليومية - تكون البنات قد صحين ، يقبلن أبي ويدخلن إلى زهرة العيد القرح ، المذيع في براجه الخفيفة وأغانى قديمة محبة ، وأمي مع أخت لي في المطبخ يلقيان قطع الكبدة في السمن ويقطعن الجبن وتعد واحدة صحناً كبيراً من السلطة وتنادى أمي على أخوي كي تُخرج الخبر الذي انتهين من خبزه الليلة الفائتة في القرن داخل الجنية

وأنا وأبي نجلس في الشرفة نتصفح الجرائد وأهتم - جداً - بصفحة ممثلة بملصقات الأفلام السينمائية وإعلاناتها بينما يتابعني أخي في حرصه وأتذكر هذا اليوم الذي ذهبت فيه مع ثلة من الرفاق إلى عاصمة قرية من مدينتنا نشاهد فيها برنامج أفلام ثلاثة في دار عرض ضجت بالصخب تُطلقه حناجر وضحكات وحركات ومشاجرات مثأت الشباب صفار السن يملأون المقاعد كلها وكان الفيلم بعيداً على الشاشة بينما الصيحات تهر كل محاولة للمناجاة وأقدام تستند على ظهور المقاعد التي نجلس عليها والسجائر خرجت من جيوب وقمصان الجميع يدخنون في لهفة وشبق ووحشية ويلقون بالأعقاب في كل مكان منتهزين مخروجهم من حزام الرقابة العائلية وزخم توافر قروش العيدية وكانت هناك بنات مع اخوانهن في غفوة من هذه الثورة الجنسية التي تفشح دار العرض حين يُقبل بطل بطلته ، أو تظهر ساق هنا أو هناك ، أو ساعة فعمل الجماهير غولاً من التصفيق والصياح وكنت أعشى على صحة البنات بوجوههن البريئة المفروعة وضاعت كل صلة لي بالفيلم وتعجلت خروجنا ، ذلك ما حدث لي وحيداً أيضاً في دار عرض في يوم من أيام العيد اضطررت فيه للتواجد بالقاهرة لحمل بالمجلة وحين وجدت فراغاً في الوقت يحتاج إلى ملئه كانت دار العرض الكبيرة الضخمة تضع صورة نجم الفيلم عائلة الحشم وتزاحش مع الجمهور ظناً أنه فقط الجمهور ، ولكن لحظة دخولي تميت انسحابي في ذات الدقيقة التي أشار لي عامل السينما بمصباحه الصغير إلى مقعد - أي

مقعد خال - كنت أهم بالرجوع فقد كانت المقاعد حافلة بالغوغاء الذين أطاحوا بكل شيء ، الهدوء والنظافة والحياة والفيلم بطبيعة الحال وكان إذا ما أتى النجم بحركة للضحك ضجيراً بالضحك عشر دقائق دون أن يسمعوا ما يتلوه من كلمات أو حوادث ، وإذا ما ضرب واحداً بعنف مستحب لديهم اتهاكوا بالتصفيق الحاد الذي لا يقطع بظهور مشاهد أخرى أو توقف صفع البطل للممثلين وكانت هذه المرة - بنات كثيرات - في مقاعد ملتصقة - لا يبدون أخوة وقد اشبكت أصابع وتحركت أبدى وتداخلت أصوات الجالسين يسون ويتغدون ويلعنون ولم أكن أكنسى سوى على نفسي .

ناداني أخى من أذنى .

- سأذهب لمشاهدة فيلم اليوم .

صرخت عليه حاداً .

- لا يمكن .

صوت أمى استدعينا للإفطار - بينا جاء والدى من الجنة في يده الصحيفة مفرودة عند صفحة مقال سياسى .

أشعر خدلاً في جسمى وخدراً في يدى من قلة النوم وغياب راحة البدن وكنت أحس في كل جزء من لحمى دبيب النمل يجرى فيه ويندق في سميه داخل ، أحاول أن أختلس لحظة للوثوب نحو النوم ، ولكن التحديث في كفيل بالتراجع اخرج مع والدى للشارع بعد مازاونا الأحوال

وبعض الجيران نهض من غرفة الجلوس جميعاً إلى الشارع في صبحه متأسكة متباعدة حيث نزور الجيران نبدأ بالمنزل المقابل ، البوابة الصغيرة والسلام المؤدية إلى باب الشقة ، الصالة الضيقة وإرتباك قطع الحلوى في علبة معدنية وأتسامات متبادلة وكلام في التحية مع وجوه مألوفة ثم خروج إلى منزل صغير وأطعم تحت أسفلت الشارع حيث جارة علية كانت تباع البرتقال والفاطمه تمش مع أمها وإبتها وبجلى المرض والفقر والحجل عندها شقيق يزورها في الصباح ، يستقبلون زيارتنا بحب شديد وقطع حلوى متواضعة فقيرة وشكر جزيل وإلحاح بطول الزيارة ثم كثير من الأرائك وغرف الجلوس والمقاعد الخشبية المبطنة الفطيفة وقطع الحلوى ودوائر الكحك والبنى فور والسكر المبدور وأطباق الفول السوداني والتمرى ، ترفض الإقتراب من التحيات حيث انتفخت البطون بلباء غازية وحلوى فُرِضت علينا جميعاً قسراً ويودعنا الجيران حتى غابات البيوت ونسير مستكملين الرحلة ورائحة العيد تتجلى وتزدان بالماء الخفيف على شوارع مربة أخذ خبارها ونمضى بنا المسافات وحين يسرى فينا إحساس مُضى الوقت وقضاء الواجب نبدأ الانصرافات والسلام وتبادل التهته وتقلص أعضاء الصبح .

الجنة الآن مستعدة تماماً ، نظفها عامل نظافة الشارع نفحة أمى ثلاثة حبهات بالأمس وشرع وجودها كله للعيد ، الأرض نظيفة كُنست كل الأوراق الصغراء وبقايا الصحف وأعواد أنفاس وشمرات معطوية

قديمة وتُذهبت الأشجار وأُخليت من ذواتها واغتسلت الأوراق الخضراء
برش من خرطوم يتهمر بالماء كالطر ، فيسقط الغبار القديم والتراب
الخلون للهواء .

قرئت أمي سجادة قديمة على الأرض بين شجرتي الجوافة والتليمون
فبانث رقعة حمراء وسط حديقة صغيرة محاطة بالجدران العالية ، ورفع
خالي التليفزيون أمامي وحلناه سوياً حتى المائدة الصغيرة الموضوعة إلى
جانب الشجرة ثم عددنا السلك الطويل من الشرفة المعلقة على الجنية
حتى جهاز التليفزيون ، بينا نبها إلى عدم المساس بالزروع ، جاءت
جلتي وتربعت على صند تقطن فوق السجادة ترندي جلاباً جديداً
قيادته يلعب وتتحمسه بكفيها سعيدة مزهوة بينا كان أبي يروي المربعات
من الزروع الخضراء ويمسك بالمصحف يمينه والتليفزيون بدأ بث
برامج العيد وهذا الضاء الموسى الذى تطلقه مطربة ممثلة ترحب بقدم
العيد .

ينادى أخواتى أبي من فوق السلام المؤدى للجنية ، يضحك مدركاً
سر النداء الأليف في لحظة تشبيلية - لا تنسى بهم الآخرين بأنها كذلك -
يفهمنا أبى فيطلب من أمي حافظة النقود من جيب حلت الخضراء (وهي
رصاصة لكن والدى يتمتع بأكثر الأمراض خفة ظل ومشاراً للابتسام
والخبرة معاً «عمى الألوان») فإذا بأبى لا تسأله عن حقيقة لونها بل
تتجه إلى جيب السترة وتفتحه دون أن تغلق زر السترة تلك الحركة التى
يعرف منها والدى فوراً أن أمي فتحت حافظة نقال وانقأ .

- هل أخذت نقوداً من المحفظة ؟

فتجيبه أمي فوأسواء من المظيخ أو الرذمة أو من فوق السرير .

- نعم أخذت عشرة جنيه لأجل اللحمة .

وأبى لا تذكر أبداً إغلاق زر السترة حتى لا يكشف والدى سريراً
تحرك حافظته وفواغها من مال ما ، فأبى لا تهتم باكتشافه لأنها تخبره
فقط تتخير موعد ذلك بدقة ، حين بسمة أو مداعبة ، أو ضحك عال
صاحب أمام موقف هائل يتزعجه خالي الضاحك دائماً (يعتبر هذا
حسداً ثم لا يهمه) حيث أن النبى محمد (ص) يظهر له في المنام - الرؤيا
وتخبره رضاه عنه فتضج منه .

- كيف يرى وحده النبى بدلاً من المرة عشرأ بينا لا يصل الجمعة
أحياناً ، فينتجح بوجهه شفقة علينا من الجهل بالرضا الربانى الخاص به
تجديداً في المائدة كلها ويمسح صدره موضع القلب بكفه ويقول المهم
هنا نظيفة ومطهر ومرتاح ، حين يصل الأمر إلى تبادل الاعيادات الدينية
الليمة المرحية يقفز خالي على الأرض ويأتى بأفعال رجال السيرك إياها
حيث ينقلب على راحته ثم ظهره ثم يستقيم واقفاً فجأة أمام ذفن أبى
فيضحك جداً .

- ستظل طول عمرك مهرجاً .

تضيف أمي .

- أصبح لديه بدل العيل ثلاثة ومع ذلك ولا يهتم شيء هنا - أحياناً

تسحب الكلمات حتى يصل إلى جنيتها أخذت من المحافظة أو تذكير بأنها طلبت من أبي نقوداً تكفي شراء حاجيات من السوق أو أجرة درس شهري لأختي أو أخى أو كليهما جز أبي رأسه منحنياً موافقاً .. ويستكمل قراءة الصحيفة .

تقدم أمى له المحافظة من النافذة المطلّة على الحديقة حيث يقف تحتها ماداً يديه فبهبط اخوانى يقودهم أخى نحوه فى لحظة العبدية الأولى بعد أبى أصابعه داخل المحافظة ويمسحنا العبدية بيننا يستنكر أخى أنها لم تزد من العبد السابق بيننا تداعب أختى الوسطى أبى طالبة من أن يرفع المبلغ قليلاً حيث أنها كبرت .

كففت منذ سنوات الجامعة عن الحصول هل العبدية من أبى حيث أصبحت صاحب دخل شهري من عملى بالصحافة ، الأمر الذى جعلى - مبكراً - أقوم بدفع العبدية إلى اخوانى أو بعض أبناء العائلة زعماً منى أنتى زجل واقتناعاً منهم أنتى كذلك .

الشمس لم ترفع رموشها عن أشعة دافئة مثل صوت هديل الحمام فى الحوائط اللينة تمخض صوتها فى أوراق الشجر الأخضر المغسول وذوايا الجدران وأطراف السجاد المفروشة وتلقى بظلال الشجر وأفرعه المتشابكة والمنطلقة على شاشة التلفزيون حيث انضمت همنى إلى جدتى وجلسن على السجادة وتتابع العيون - دهشة - متتاليات البرامج . ويكون الوجود كله قد اندلع بالحركة المستمرة باندفاع أطفال العائلة

مطلقى السراح نحو كل شيء يخص الوجود فى هذا الصباح ، خالتى حضرت وزوج خالتى بإبتسامته الأميرة المهذبة بمسك بكف إبنة الصغير محمد الذى لا يكفه عن محاولات التملص والانضمام إلى أشقائه الثلاثة الذين عاثوا فى افواء بأصابعهم وأقدامهم وعيونهم وحركة أجسادهم وأصواتهم ينجح فى الاقتراب من أخيه أكبر سناً - طارق - يعود إلى الخلف خطوات ثم يرفع قدمه اليمنى فى أقصى ارتفاع فما مقلداً لأبى الكارائيه مطلقاً صبحاته التى يريد لها أن تحرق الأرض فتشر ضحكنا فيشتاق بمد ذراعه فى فسوة وحدة مبذول فيها جهد ليس هيناً ثم يتدفع نحونا فيسقط مترحلقاً على الأرض فتضج بالضحك فيشاركنا فيه برياً بيننا أخوه الأصغر محمد أقصر أطفال العائلة رغم سنه يشب نحونا ويدور بيننا لكياً وتقتبلاً ثم يعود جارياً إلى الخلف ممسكاً بحبة يصب فى كفه يطبق عليها قبضته وينفخ فيها حتى تمل المتابعة فيفرد أصابعه ويلقى بها بقوة - يعتبرها مفرعة قطعاً - إلى الأرض فتتحرف على البلاط دون أن أى شيء فيخبى ثاماً ويشعر بخزى ترتفع درجته مع ارتفاع ضحكنا أما أخته الأكبر - ريهام - فهي مصدر الرعب الحقيقي للمبت كلة خشية أن تحوت أمام سيارة أو تحت فطار كما يعتقد الجميع أن نهايتها ستكون مفرعة لفرط شقاوتها ورجولتها الغريبة وعنفها المنطبع فهي أكثر بنات وأولاد العائلة تعرضاً للإصابات والحوادث ، قطع فى جلد اليد ، شرخ فى قدم ، جرح فى جبهة الرأس ، لا تتورع إطلاقاً عن الدخول فى معركة غير متكافئة مع شلة من الأطفال ولا تملك أية قدرة على الخوف ،

تفتقر من شرفة إلى الأرض في الشارع أو تجري وراء سيارة أو تصعد فوق سور السطح ، تمسك بأي شيء يصل إلى يدها ابتداء من الكهرياء وانتهاء بالسكاكين تجري في أرجاء البيت بمعدل يكفيها للفوز بأية بطولة للسياقات الطويلة ، ترد على أية محاولة للضرب بالضرب والسب بالقذف ، ترفع أطفال العائلة كلها إلى كتفها . قال يعنى حنان - فخلع حذاءها وتعدو حافية فوق الأسفلت أو الأرض الترابية ، تتلقى تأديب والدها بصلد وجبروت يدفع أمها غالباً إلى البكاء لمعجزها عن فعل شيء معها ، وصار ارتباطها بأي طفل أو طفلة منار تعب قلب لأسرة الطفل وكلما ظهرت ملاصق الشقاوة على طفلة في العائلة كلها تطلق عليها لقب تلميذة ربهام زعيمة العصاة ونساء أنفسنا - وغيرها - هل يمكن أن تكبر زعيمة العصاة وتصبح فتاة ثم زوجة ماذا سيفعل بها ألقاها ويعود أبى إلى التذكرة بان أمها - خالتي - كانت في طفولتها بنفس درجة عنفها وشقاوة أبتها .

يتدافعون جميعاً إلى العبدات ناصبين أحياناً إلقاء الشكر فيهم والدهم لكن التداخل الشديد بين الأطفال الذين جاءوا مع الأحوال والحالات يدع الكل نامياً لمعالم الكل .

تقترب ابنة خالى «إيثار» نحوى نازعة نفسها من الزحام وهى ترانى أحوال إصلاح شاشة التليفزيون وضبط الصورة .

- أنت مالك بالحاجات دى .. أنت مثقف بتاع روايات ، أنهاراً تماماً من الذهول ، هذه الطفلة التى لا تتجاوز أربع سنوات ما الذى أفهمها

أننى « بتاع روايات » وليس لى فى غيرها ، أنادى خالى لأخبره فتمتنعنى بكفها الصغير الناحل الذى يمسح صدرها مستعطفة وعيونها الجميلة العسلى وشعرها البنى الذهبى يجعلنى ذاتياً رهن إشارتها .

- أوعى تقول أحسن بابا يضربنى .

- أبدأ يا قمر سيفرح بك .

تجربى عندما تصدق نحو شقيقها الصغير على حجر أمه فتداعبه ثم تمسكه بقوة تريد تقيله مندفعة فتمنعها أمها فتصرخ .

- أخى حبيبى تعالى يا حبيبى .

وتضمه إليها كالنساء الكبيرات ثم تنطلق إلى البالونات المتفخخة التى ملأت الصالة والحديقة وأمينت إبنه خالى الآخر تجرى وراءها نحو اللحاق ببالونة كبيرة ، تنمرجح فى الهواء ويتصارعان حولها عند هبوطها إلى حافة السرير حيث يمكن أن تطوها أصابعها ، تستخدم المعركة حين مشاركة شيماء ابنة خالى الأكبر ولكنى أجرى نحوهن مانعاً مجزرة الصداقة تحت السنة البالونات وأدفع البالونة عالياً إلى الهواء فلا تطوها أى الأصابع الصغيرة اللينة فيضحكن مسرورات كأنها اللعبة فاستمرى ذلك فأضرب بالبالونة إلى الهواء صاعدة أمام نظرائهن المشتاقة حتى يجربن إلى بقية البالونات غير المتفخخة فيدفعن آباءهم إلى النفخ فوراً بينما تصر «إيثار» على القيام بذلك بنفسها ثم تنفخ ، لكن لا أثر على الإطلاق ، بعض الصغير والرضا المنساب من قمها فتزهق وترمى بها أمام أعمى .

- شوق مثل أنت كبير وعامل راجل .

ينهرها والدها ضاحكاً قترد ،

- يا اخي ميبني التهاودة العيد .

أماها :

- ماذا تعنى يا إيثار ؟

تحيب صاخبة وقد التفت حولها عيون العائلة ،

- كل شوية عيب يا «إيثارة» ، عيب يا إيثار ، هو أنا معرفش أحمل

حاجة خالص ، شوفوا حد تانى تتحكموا فيه .

نفضحك مهترين من مفاجأة التمرد الطفولى .

يفوص البيت بالأطفال ، تدافعهم وتكالبهم ، سقوطهم على الأرض

ثم صرودهم المفاجيء ، قيامهم السريع ، لطمهم المتدفق ، صراخهم

المختلط ضحكاتهم المجلجلة ، عراكمهم الصغير بينهم كان أحد ابن

خالتي مكتئباً بقامته القصيرة وسمرته العلية وعبونه الواسعة المحفوفة

بالدموع ، جلس على مسند الأريكة دافساً رأسه فى القياش دون أن

يتحرك وكانت عهديته ذات الأوراق النقدية الجديدة حادة الأطراف

نائمة عند فخذه الصغيرين ، أحمد كثير الإكتئاب دافع العينين دوماً ،

حتى أننا بتنا نتعامل معه على كونه فتاناً والنمستا عند والده «ابن عمنا»

أن يجيد له متنفساً لإبراز فنه ، إنه يبكى ليالى طويلة وسط حيرة الأم

والعائلة ثم نفهم من أخيه الأكبر حسام سبب بكائه فإحدى زميلاته
بالفصل قد تغيبت لمرض ألم بها ، فافتقدنا أحمد ، وصار يبكى لأجلها
حتى أن دموعه انقطعت بعد عودتها - مغمودة - إلى مقعدها فأستقرت
عندها عبوته ونبضات قلبه وذقة مشاعره ، كما أنه أحياناً يصحو من النوم
يعانى غلظة الهواء على أنفاسه ، وثقل الحياة وهمومها - كيف لا يعرف ؟ -
المهم أنه يروح بفرقه من الدنيا والمللكوت ويسأل - وهو صاحب
السنوات الخمسة - عن معنى الحياة ؟ لذا كان طبعياً أن تقترب منه
أختى وتلتصق بجسده النحيل وتساله مداعبة عن سر ألمه وامتناع لونه
وسكوت حركته ، ثم تحكث طويلاً فى استجوابه وتضى وقتاً فى استنطاقه
دون فائدة ، لكن عند لحظة يمينها تغفلت فى العائلة المشكلة الكبرى
فأحمد مكتئب لوجود أمينة بنت عمته وخاله (..) مرحها وجربها وققرها
كلها أشياء تثير لديه الحزن والوجع .

- لماذا يا أحمد ؟

- أصلها غشمتنى .

وتسرى فينا ضحكات عذيفة تبرز وجود الهواء حولنا ، لولا أن أحمد
ينهر فى بكاء كثيف .

- يعنى أنت يا أحمد لم تشتتها أيضاً ؟

وتستزف هذه القضية أختى تماماً وتجرى هنا وهناك وترزق
وتستجوب وتتهم وتدين أحمد وتعاقب أمينة ووسط هرج العيد وخروج

ودخول واندفاع وثبات ومشكلات صغيرة ، مناوشات هنا وهناك ، لمسح حسام في معركة حامية مع عبد العظيم ، حيث يرفع حسام المسدس الأسود وهو واقف وراء حائط الباب بينما يجتمى عبد العظيم خلف الحائط المؤدى إلى ردهة المطبخ ، وبينما يظهر حسام سريعاً ويطلق رصاصته ، ويخرج عبد العظيم في جدية أقلام الغرب الأمريكى ويضرب بمسدسه الذى تمرزه قوة الصوت فيخرج عبد العظيم صوت طلقات الرصاص من فمه ليكمل المشهد لكن مسدساً آخر يظهر مع محمود الصغير الذى يحسم الحركة كلها ، فمسدسه يطلق بالفعل سهماً بلاستيكياً يلتصق بالحائط أو يؤذى الجسد فيخشى كلاهما من طيشه وضحكته المرتجة وهو يفرض بينهما بجسده الصغير الذى لا يصل إلى ركبتهما إلا بالعافية ونسمع نحيب بكاء من الخارج ، مندفعاً نحونا ، نجرى الأمهات راكضات لنكتشف أنها ضحية من ضحايا ربهام قد جاءت لتشكوها لنا ، نفهم الموقف ونبحث عنها فيجرب نصف الأطفال للخارج تشقياً فيها وللبحث عنها ، لكن حسام تسرقه أغنية قادمة من الجنينة فيقف على المائدة مطلقاً لصوته العنان في صوته حلالة ورنين مما يجعلنا نحبه لكنه يستمر هذا الإعجاب أسوأ استنار حين يصرخ ويزعق بصوته كأنه يئن ، فيحول صوته إلى آلة مزعجة ، نطلب منه أن يكف ، ثم نلج عليه ، ثم نهم بضربة ، ووالده يحاول أخيراً أن يوقفه عن الإندماج .

تشوقف سيارة في الشارع مصدرة صوتاً زاعقاً علامة توقفها المفاجئ

المرتبك نسمع زخفات العجلات على الأسفلت تلتاع أمى تركض للمشرفة .

- أحسن يكون واحداً من الأولاد .

يدخل أطفال كثار إلينا تتقدمهم «ولاء» بطيبتها وهدونها البائن ونحافتها المذهلة وشعرها المعقوص في ذيل الحصان خلف ظهرها .

- ربهام كانت قصاد العربية .

ونسمع صوت ربهام صارخاً قادمًا من البوابة .

- كده يا ولاء ، أنا أهو يا ماما .

تخرج لها أمها تقاوم أن يُغشى عليها .

- أنا ما عشتش حاجة والله .

انسحب منسلًا ومتسللاً إلى غرفة نوم داخلية ، على السرير متوسداً تعبى وغيبابى عن راحة البدن ، أضع رأسى بين وصادتين ، حتى لا أسمع هذا الصخب الشرس في الخارج ، يفتح باب الغرفة فأزعق رافضاً أن يقطع أحد نومي ، يعود الباب للانغلاق وتتسرب نحوى وجوه أمية سائنصل هاتفياً بهم بعد يظفنى ، أسمع صوتهم وريحة العيد في حلوقهم وغيبابهم عنى أيام الأجازات السابقة للعيد وبعده ، لكن غرفة خالية تُثبت فيها حبال متينة بين بعرض الغرفة واشتبيكت فيها ملاءتان كأنها ستارة مسرح تظهر لى ، وقد رأيت نفسى وبصحة أحنى الكبرى

والوسطى ، في غربتنا البعيدة ، قامات قصيرة ومذاهبات أمهات أجلسن
حولهن أصدقاء الغربة وأطفال المصريين من زملاء أبي وأصدقائه
وجيراننا ألتئم الأطفال جميعاً في انتظار الفرج المستارة عنى ، دعوتهم يوم
العيد إلى حفل أقيم في منزلنا أمثل مسرحية وأقول شعراً وأرتدى - مع
بعض أخوتي ورفاقي - ملابس فنكر نقدم فقرات للعب .

كنت أقوم رهبتى وإحساسى بالفتل وضغط خيالى وقلة المعاونة
حين خرجت من وراء الستارة أمثل تشييداً ما أو أحكى قصة مدرسية ،
وبداً الرفاق في الدهاءات الخليقة والمحاولات البدئية لإفساد الحفلة ،
لكن الذكريات تتناثر وتبتعد ولا أذكر - الآن - سوى وجهها مخلف
الأقنعة الكرتونية لحمل وجوه الشياطين والفرسان وأختى الصغيرة تخاف
مرهوية من هذه الأقنعة .

ثم مسدس فبعض الشترية بالعبدية وأفغاً في منتصف الشقة ضاحكاً
على الزر ، فينطلق شرر من الألوان الحمراء من فوهة المسدس وحين
نصعد إلى السطح نلعب الكرة ، تسقط كرتنا بعد حماس زائد للإستحواذ
على اللعبة بيتنا ، فإذا بالكرة تنطلق في الفضاء ثم تسقط من بناية ذات
ست طوابق نراها في الهواء مهوى واللى يتقلع ويتأكل ويغيب عن
الرؤيا . وفي الساحة الخالية أمام البناية يمسك بها أطفال من بلاد الغربة
صاحكين واكضين وأقدمنا ترتج فوق درجات السلم ، أصابع أمى
تداعب كتفى .

- استيقظ يا حبيب .. أبوك يتكلم

أخفى متجسلاً .

أجرى نهر الهاتف بصوت نائمة من النوم ، فوقها ضباب الغفوة
الطويلة .

أصك الساعة

- كل سنة وانت طيب يا أبى .

يأنى الصوت من بعيد ، صاعداً من مستطيل زجاجى لغرفة الإتصال
الضيقة في مستترال ؟ بعيد موحش .

- كل سنة وانت طيب كيف حالك ؟

وأنسى .. بعد عودة أبى المخرقة عقب ثلاثة عشر عاماً كبيراً ليها
عمراً وحزناً - أنسى منزلها .

- هل وجدت الكرة ؟



العودة

الطريق البري

النصفت أنفى بالزجاج ، سور زجاجى طويل يفصل بين هذا المعر
الذى أقف فيه الآن وبين الصالة الضيقة التالية لصالة الوصول ، داعبت
أصابعى الضباب المتكون من أنفاسى على الزجاج حاولت كتابة شيء ،
حرف ما (نون ربما) ، أو كلمة ، لكنها الرغبة باخت والمشروع تراجع مع
يدى المنحبة إلى جيبى ثم نظراتى الملقاة على الوجوه الجالسة فى
الكافيتريا الخلفية ، مساحة من البلاط العارى ثم مائدتين صغيرتين
خلفهما حاجز خشبى منقوش كالمشربيات بتشكيل إسلامى فشرى
أكواب للشاي على مائدة عالية منزوية عند نافذة تطل على منطقة من
ساحة أفلاخ الطائرات ، حيث طائرة تبدو صغيرة متوقفة بمقدمتها التى
تشبه منقار بومة ، وأخرى تجر عجلاهما على الأرض تشهد حركتها البطيئة
المسرعة ، يحرك ابن عمى الذى يرافقتى فى الجلسة والانتظار أصابعه
نحوها .

.. ها هي طائرة تقلع .

حين يضح أزيرها يضطرب صدرى ويخاصمنى الفرح وتنفث كآبة
خاصة بى قلبى ، كأنها طراز معين من الكآبة أعملت فيه تكنولوجيا
الأحزان كل طاقاتها فى مصنع مرعب من الآلات والأسلاك والعبوات
والمعاطف التى يرتديها المهندسون والأرقام الأفرنجية على الحوائط فى
ساعات لضبط الوقت ، وأخرج المصنع لى وحدى صنفاً من الكآبة بلبق
بطلى ولا يفك ولا تبدل قطع غباره حتى إذا عاد للمصنع ذاته ،
يطلقون عليه اسمى لأن عمله متميز بطلب هذا الطراز وعكف على
صناعته أعتى مصمميهم دقة وأعلى فنيهم خبرة وأكثر آلهم تقنية ، كل
هذا حين تطير هذه الكتلة ذات الشكل المسحوب طائراً معدنياً
مقلداً.

— أين أنت يا عباس يا بن فرناس .

تراجعت عيوني عن كبرى الشئ الفارغين إلا بقايا أخيرة خفيفة
وأستدريت إلى الممر الضيق الذى احتشدت فيه العيون المتفجرة ، كلنا
نحمل لفحة على رموشنا ونأتى بها إلى هنا ، الأكتاف متراسة والأقدام
متعبة لذا فقد اختار أصحابها الإسناد على بروز أسمتى مقابل ، يجلسون
فوقه فى إنكاء متعب وعيونهم فوق الزجاج أو على ظهور رفاقهم المنتظرين
خلف الزجاج ، قد يلمحون إقبال الأب ، وفود العائلة ، يضحون
بالفرحة ، فينتبه الجالسون ، يقفزون إليهم ويتبادلون مع المقبل العائد
تلويحات الأكتف ويمجرون نحو نهاية الممر ، حيث التفافهم فى المساحة
الأمامية لصالة الوصول أمام ساعة الاستعلامات الالكترونية المثبتة بتغير

أرقامها وتقلب عواصم العرب كلها فى خاناتها ، حتى تستقر عند
عاصمة بعينها تأتى منها طائرة تقل قادمين للمنتظرين وتزف فرحاً
للقائمين فى شيق النقاط دقائق للسعادة واستمهال عادة استهلاء الغربة
وتعود الرحيل واعتياد الفقد واختلاف المسافات البعيدة .

كان أطفال يرتعون فى الممر بين الجالسين نعباً والواقفين نعباً ، أقدام
الأطفال تدق البلاط وأصواتهم الصارخة تتداخل فى الفراغ واستلهم
الملحة لأم واقفة ، هل جاء أبوهم ؟ لجد جالس ، لماذا تأخرت الطائرة ،
ثم يعودون للعب ويلعب المنتظرون فى صدورهم ، سلسلة أخت أو
مصحف معلق على صدر زوجة أو زر قميص شاب ، ثم تدق أصابع
على الزجاج وقد يأخذها تطرف فيهتز الزجاج فى السور كله فتتجه
الأنظار عاتية إلى صاحب الأصابع العصية ، البعض اتجه نحو شباك
زجاجى مطل ببياض يمنع الرؤى لكن الأيدي قشرت الظلاء فى أيام
طويلة لينكشف زجاج النافذة الضيقة المطللة مباشرة على حيزه من باب
الولوج من صالة الوصول إلى الصالة الصغرى التالية لها التى تتعلق
عندها ، وكان الوقوف أمام هذا الشباك القاتل من هذه الكوة نصراً
للمتأخرين الذين يعطون لأقاربهم الواقفين أمام سور الزجاج أو
المتسكعين فى الممر ، يعطون صيحة قدوم المنتظر ، عودة الغائب فتسمى
فرحة مزققة فى الممر كله وهرج فوضوى مثالى ، أم تنسى طفلها فيعدو
خلفها صارخاً فيمسكه خاله ، جد يستيقظ من غفوته على كف يمز

كتفه، فيقوم بينها يكون الجميع قد انطلق خارج الممر، غطاء رأس يسقط
منزحاً من صيدة محببة ملهولة، حذاء يتخلع من طفلة ملقاة للمشهد
والعودة.

وحين ينتهي كل ذلك نبدأ في الرجوع إلى الشباك والسور الزجاجي
لنتنظر ونرتقب ونصرخ آخر لثالث.

- بابا أهو .. أهو -

ولا ينتبه الأب العائد، عيوله محدة في المساحة الخالية غير متيقن من
وجود كثيرة تحملق فيه من وراء الزجاج وسيارات البضائع المتوقفة أمام
باب السوق الحرة وحقيبة الأوراق في اليد الدافعة للسيارة وحقيبة ملابس
تسقط فيتوقف ليحيدها موضعها، ثم تغفلت منه السيارة الصغيرة في
إنحراف عند إستقامة السير نحو الخروج ويعجز عن إعادتها لمسارها
المستقيم فيتوقف آخر لمساعدته فيتسبان منعجلين وحين يفيق على
خبطات الأكف على سور الزجاج يلوح وجه ابن أو أخ ليضحك
ويتوقف بدلاً من استكمال السير إلى الخروج والمغاء بهم، يتجه نحو
سور الزجاج ويصافح أكفهم خلفه ثم كأنه وصل إلى محطة قلبه، يتوقف
حتى يثبته المنتظرون على الخروج للتلاقى واللمس والعناق وحرارة اللقاء
ونور مصر يا بابا.

وحين يضع القلب إبرته في عروقنا، تبدأ أسئلة تقليدية حثيثة في الفراغ
من حلقوتنا إلى آذاننا - جميعاً - محقولة الطائفة لم تصل حتى الآن، هل

يتأخرون إلى هذا الحد في الجمرك ؟ لكن كثيراً منهم وصل ، هل تخلف
ركاب آخرون ؟ ثم نستعمل أحد القادمين في وثوب نحو الخروج ،
نستفهم منه عن بلد قدم منها وطائفة وصل عليها فنسمع صوته بالكاد
يؤكد إغا الطائفة التي ننتظرها نحن ، آخر من بقى في الممر ، أفراد
تعددهم أصابع اليد الواحدة مرتبكين ومندهشين وقد قرع الشباك الصغير
لنا نلمح فيه فراغ صالة الوصول وخلاء النوافذ الجمركية وصحراء
الأسوار الحديدية الصغيرة القصيرة الفاصلة بلا أحد ، ساعتان من
الانتظار بعدها نشكك في كل شيء ، ربما لم نسمع منه في الهاتف رقم
الرحلة جيداً ، ربما أخطأت أختي في معرفة يوم الوصول بالضبط هل قال
الثلاثاء أو الأربعاء ؟ من الذي تلقى مكالمته ؟ هل كتب البيانات فور
سماها ؟ هل أرسل أبي معلومات وصوله في خطاب بخط يده ؟ طيب
لماذا لم يتصل إذا كان قد أجل الرحلة ؟ وعشرات من صفوف النمل
تصعد إلى رؤوسنا وتغفل الملح وتعبث في جلودنا ثم نعرف أن كثيرين
تخلفوا على الرحلة لعدم وجود أماكن .

ثم.....

نتصل بالبيت من « السترا » الصغير القابع في دور سفلى للمطار
أمام المسجد الصغير جوار أفرع البنوك ما ، ودورات مياه وأجهزة المواتف
ذات القطع المعدنية معلقة على الأسوار ، أدخل إلى السترا ، استبدل
قطعاً فضية ، أدخل حجرة زجاجية ضيقة الملح منها موظف « السترا »
ملولاً وابصالات المكالمات ملقاة على الأرض ومتظيرين - أيضاً - على

وتظهر أرقام هاتفنا على شريط معدني شفاف في جهاز الهاتف الرصاصي ويأتى الخط مشغولاً فأكرر المحاولة لكن قطع الفضة تسقط من جوف الهاتف ، فأعيدها ، فتظهر قيمتها على الشريط نفسه ، ثم يعود رقم هاتفنا بكود المحافظة إلى الظهور ، ثم وجه في الخارج ينتظر فراغى من المحادثة وقلق ما يعزف في عينيه ... فأستعجل الاتصال مرة ثالثة ادفع بحدائى جداراً مبطناً ثم أحشر قدمى في زاوية التقاء الجدارين ثم التفت إلى جدار مقابل ، . أضرب الجهاز بأصابعى ، أعيد قراءة رقم الهاتف .. ثم صوت الحرارة طازجاً .. نين منتظم أكاد أراه في بيتنا حيث زحام انتظار عودتنا مع أبى من المطار وروائح الطعام وقدم أقارب وحوارات صاخبة وفرش في أعلى درجات نظافته للأرائك والأسرة ثم صوت أختى عالياً .

- نعم اتصل هنا وقال أنه لم يجد مكاناً في الطائرة وسيعود في الطريق البرى .

..... البرى .

عندما عدت كان كل قلب مجهزاً لأبى ، لتغير سيارة بيجو ، واحتكاك بأسفلت وتهمل قبيل توقف وخروج كالثهام إلى الشرفة ، وصراخ مثل صواريخ الأعراس والاحتفالات المخلتة عند ظهور والذى تازلاً من السيارة ، وجهه مكدود من السفر الشاق وإتسامته لروح مبشرة بجنة موعودة .

وكان صمت البيت واحداً بطيئاً في إنتظار هذه اللحظة المختطفة من أوراق نتيجة الحائط المستله من الزمن الوثيد الذى يمر على صدورنا ونشتم ما تبقى من حطام الروح .

هذه السيارة المنتظرة ببياضها وشارية أجرتها ومقاعد الجلدية وسائقها الأسمر هى نفسها التى كانت تنتظرها منذ عشرين عاماً على وجه اليقين أمام برج المنوية وقفنا أبطال صورة جواز السفر - أمى وأختى الكبرى والوسطى وأنا فقط صغاراً كالفراخ المستدفنين بصدر الأم ننتظر (أكثر الأفعال التى خلقها الله تعالى كآبة وأثقل ما فى القواميس الثقيلة) ومعنا زوجة صديق لوالدى وأولادها نقاسم السفر الى الغربية حيث ينتظرنا أبى وصديقه عائلتين خيمتين من الإتصال والحب والألفة منذ ظهر اسم كبيريهما في كشوف الإعارة ، لكن الزمن الذى لا يرحم وأحياناً لا يترك رحمة وبنا ننزل ، قطع الأوصال وأنفاها فى أكياس بلاستيك ، دفنت الغربية هذه الصداقة ومزنت صلة كنا نظن أنها ستبقى طيلة العمر ، لم يمر عامان فى الغربية وجيرة شقتين ملتصقتين وتزاوير وتصادق ومعاشرة وأكلات مشتركة ومداعبات موحدة وذكريات ملتزمة وبركة فى لمة ، عامان وتراكمت خصومات صغيرة ودبت غيرة وانتشقت شفاء وصحونا الأطفال لتجدنا - الأطفال - يعيدون حتى ظننا أنه لا لقبا ، غزل الصديق وعائلته ولم نعد نسمع عنها إلا طاماً عند صدفة عبرت أو حكاية من رفيق مشترك أو تأسف حار من والدى على عشرة العمر

وبعض الحكايا التي نحتفظ بها للدفاع عن أمانتنا في الحفاظ على
الصداقة ثم جاء جيران جدد ورفاق جدد وأصدقاء جدد وقد أدى صار
الجدد وبعيدين صرنا .

ركبنا السيارة الواحدة وأمي تضعني جانبها وتمسك رأسي عند التقاء
صدرها بذراعها تنظر لعيني المغلقة وتطلب مني أن أفتحها ملحة
وحزينة وداعية على جار في الشارع ، كنا نلعب قبيل السفر لعبة «الدبور»
حين يلف الخيط عل الدبور الخشبي المنتهى بمسبار حديدى ثم يلفيه
بأداء معين على الأرض ممسكاً الخيطين حوله بمجرد نزوله إلى الأرض
فيدور الدبور ويلف ونحن نتابعه بلهفة وحماس وبخاصة بعد فشل مقيم
لى - أنا ابن الخامسة - في اللعبة ، بينما تخلق الأطفال حوله ، يرمى بدبور
فإذا به في عيني ، ويتفقت كل شيء ويتبدد الصبح وتنهال الصحة
وأبقى وحيداً ناكياً صارخاً ممسكاً بكفى عيني وتتدافع أجساد نحوى
تأخذني إلى أمي وأخوالى وأهل يحيطون بي وترفعني أيدي إلى كتف
وتسير مسرعة لاهثة بخادمة قديمة سوداء عجوز ظلت تخدم في بيتنا مديناً
طويلاً ثم تغيب لتعود فجأة عند حاجة ماسة لها ، وكانت إذا التفتت بي
صدفة تحيىني وتسلم على ربيهم بتفصيل كفى وتسال عن صحتي وتدعو
بأن يروىنى الله عروساً وتقول كلمة «يا سيدى» بأداء حار غلغلي غريب ،
هى التى رفعتنى يومها على كتفها ومضت بي والجميع يجرى خلفها إلى
مستشفى بعيد وأربطة ما في عيني ودموع غزيرة وريناً مستر .

- أليس كذلك يا حبيبى .

تقول أمي عند إخبارها لصديقتها المسافرة بكل الحكاية وتطلب مني
مرة عاشرة أن أفتح عيني المغلقة لأنظر الحفول حولنا والسبارات المارقة
ولافئات المدن واقترابها من الاسكندرية ثم إلى حيث أبى .

وأقيم عيني ، أفرج برموشى عن جفونى فإذا نافذة السيارة الخلفية
أراها ضبابية غارية ، وجدتى وأخوالى ورفاق يجرون خلفها وأرفع يدي
إليهم لمشفطنى هواء قارى كاسح ويرفعنى إلى العبور عن النافذة إليهم
فيأخذوننى ويظهرون رأى السيارة تحنى وحدها تسير وأمي فيها فأبكي
ليعودوا بى إليهما ، إلى اخوتى وسفر لأبى .

- يعنى لا تريدنا .

يقولون فأبكي عيني الضعيفة وكف أبى يهزنى تمطينى فطيرة غذاء ،
وشربة من زينة بلاستيكية .

- اشرب يا حبيبى .

وأبقى على صحراء محيطية وإنساع رهيب لرمال قاحلة وخضرة نحيلة
مقسومة الظهر وسط هذا الفراغ الذى أراه لأول مرة في حياتى ، ما كنت
أظنه أبداً ، هل الحياة تحتوى فراغاً إلى هذا الحد ، لا أهل ولا بيوت ، ولا
زروع ولا شيء ، لا شارع نلعب فيه مع أصدقائى ولا أشجار نجرى تحتها
ولا شجرة توت في بيت أحد الرفاق نطفف ثمراتها السوداء والخمراء
وتطوث أبادينا ونملأ بها طبقاً كبيراً نأكلها وهى توسخ صدور ملابسنا
وأطراف ثيابنا مع لوم أمهاتنا .

يا أهذه ما يسمونها الصحراء ، لم يعد للسؤال سبب .

— ما معنى صحراء يا أمى التى سنسير فيها .

دون حاجة إلى نظرة الأم التعاطفة والخائفة ، هذه هى الصحراء . يا أنا .

يا أنا

كانت الوجوه متسائلة قلقة يحيط فى السيارة حزن مثل شرنقة دودة القز يقلف السيارة ، رغم الرصايا ، رغم العتوان المطوى فى حقائبنا ، إلا أن خوقاً عميقاً يتلبس العيون والأفئدة وحذر من تجربة مفاجئة دفعت الأمهات إلى سحب مجهولة تمشى بين إلى أرض صحراء ومسافات شاقة حتى خيانة الآلاف ، وبعد عن أهل واقتتاد لعزوة ورجل سائق غريب انشقوا معه فى توكيل سيارات بالقاهرة ، جاء إلينا عند البرج ووضعنا الحقائق واللفائف وركبنا ودعنا الأهل ونصافحت الأيدي وبكت عيون كثيرة ، بكت كل العيون وسمارت السيارة تشد مدينتنا من عيوننا وتضدم الأمهات لوحات معدنية جديدة لأسماء مدن تتجاوز الأسكندرية آخر حدود المعرفة إلى مدينة لا يعرف فيها أسماء أقارب أو عناوين بالشبه لمعارف ، لكن أمى كانت متهاسكة الظاهر ، تعرف معنى سفر لرزق وتذكرك أن هناك « ياذن الله » سينتظرونا الوالد الجميل الذى أعد الشقة وجهاز الاحتياجات وضبط الأمور وستكون أياماً هائلة رغم بعدنا وسنعود لبنى بيتاً ونشترى سيارة ونكون مرفهين بما يليق بنا ، وربما كانت

الصديقة جامدة العيون قليلاً إلى حد الجفاف ربما لأن وجهها ينسحب الآن من ذاكرتى إلى النهاية ، أذكر فقط ملمسها لى ولإبنها ونحن نهرب من السيارة ونلتحم بصحراء موحشة جداً وخوف بائن يبدأ فى التسرب لكيانى حتى أظن أنه لم يخرج . مبنى صغير خشبي حكومى وسط الصحراء منفرداً يطل على الطريق الأسفلتى الوحيد ، وظلاء أخضر يكسو نصفه وبراميل فارغة أمامه والسائق يخرج منه بجلبابه الأبيض أما أنا ورفيق طفولتى وابن رحلتنا المشتركة نسير خلف المبنى كما قالت الأمهات نخلع كلانا بنطاله أفك أزره ثلاثة ثم أحرك البنتال والملبس الداخلى الأبيض أعزى مؤخرتى والنصق بالجدار خائفاً وجللاً مرتعشاً من ظهور مفاجئ . لأحد ، مرتبكاً يحاول رفيتى طمأنتى ونحن على ذات الوضع والحال ثم تردد وتسرع وارنداء ثيابى ، حين جرى الرفيق ليلحق بأمه والسيارة وتركتى وحيداً إزاء الصحراء وهذا الحفوت المنتظم للنهار والهواء المشاكس المتزايد القادم من كل الجوانب يلقفنى فى قرفصى وأحس أن أجساداً كثيرة تظهر فى جوانب الصحراء وإن ذئب (من أين لى بمعرفة الذئاب) سينطلق من زاوية نحوى أو أن ثعباناً سيتسلقنى فى قعودى ، فألم بعثرتى وأخشى أن التفت وراء المبنى الخشبي فلا أرى السيارة وأبقى وحيداً على الأسفلت مرتعشاً ، لمحتنى أمى قادماً متعجلاً خائفاً .

— هل هناك شيء يا ابنى ؟

صعدت إلى السيارة وكانت تعيد أحكام ثيابى على وتربط بنطال

وتفصلى جانبها وتحضن أختي الصغيرة في صدرها أما أختي الكبرى فكانت تسأل السائق عما تبقى من المسافات وتطرح أرقاماً من أرقام فهي في السنة الأولى الابتدائية وثانية فتخرج بالمحصلة مئات الكيلوات وتغيرنا أننا وقد ضيقت عيونها وأمعنت نظراتها وانكسرت بسمتها واستفهمت يدها أنه لم يبق إلا القليل ، فإن الكثير قد فات .

السيارة في صحرائها تحضى ، صوت أزيز هواء يصفعنا من فتحات التوافل وذرات تراب وثوابا حصى دقيق مهذب يصل إلى جبهاتنا وشيء كالملح يسرى في الوجنات ويحط في الجلود آثاره .

والحكايا تتأكل مع الساعات الطويلة التي تنفخ على قلوبنا دقاتها والنهار ينمحي والضوء ينسحب وتقل الظلام يفتح حو بصلات الحزن في الصدور .

تصعد السيارة تعرجات جبالية ، تبدو منحنياتها خطرة تستلزم دعوة أم للسلامة وإمساك بكف أين وتردد غاث على فم واستمهال لسائق أن يهذى من سرعته والصخور تبدو وحشية في صعود السيارة إلى هذا الطريق الطويل الضيق الذي يثوى كلها مرورنا فوقه ، على الجانبين صخور مشقوقة وكتل جبالية تكاد نشعر بها تسقط فرق سقف السيارة وحشب صحراوي جاف رغم حشرته الباهتة مدشش في فتحات بين الصخور وأحاول أن أستدير برأسي إلى تحت الجبل فتضع أسي كفها على عيني وتطلب منا ألا ننظر لتحت ، كان تحت - هذا - بعيداً سحيقاً وكنا

علبة صفيح صغيرة تعبت فوق شارب الموت ، يتغلغل المشهد بأسره في غلاياي حين أرى السيارة ترتج فوق الجبل ثم تتحرك يميناً وتوقفك على الإنهيار يساراً نحو الحافة القرية والفراغ القاتل ، فقد انطلق إطار السيارة واهتزت السيارة مثل طفل يهوى من فوق درجات سلم إلى أرض مكدساً بالدماء النازفة وشهقات أسي وصراخ السيدة الصديقة وصياحنا واستفهامنا وتثبت أصابع السائق على المقود وقد انهمر عرقه وغرر ارتعاشه وانقنع لونه وصاح بصوت مكتوم حائق بكلمات مبهمة مدموجة .

تعلق إطار السيارة بصخرة وتوقفت السيارة عند مافة أقل من مستحزمات على صعيدة من الخافة ، نزل منها السائق وحشيت أسي ملناعة أن نخرج من الأبواب فتسقط السيارة في هوة الجبل المفروس في الصحراء جهماً وشرساً ومتظراً لقدومنا من المدينة الصغيرة إلى الدفنة الحزينة ، لكن السائق اقترب من نافذة مطلة على جلستنا ونصحنا بالخروج حتى يستطيع استبدال الإطار ولما ظهرت سيارة أخرى بعد دقائق طويلة مخطوطة كان السائق قد عاد إلى مكانه وألقى بيده السلام للعاير وطعن قلوبنا أنها دقائق قليلة وننتهي من هذا الجبل .

ومن النافذة القرية وبانفتاح جفون مكدودة ظننت أنها طيور بيضاء تخرج من الصخور وتطير السماء مرفرفة حتى تعبر الممر الأسفلتي المنشق في قلب الجبل وتصل إلى حافته ومفزوعاً كنت من سقوطها إلى الموت

لكنها حلفت عالياً ودفقت فاطبق صوت الأجنحة الصاعدة على الصمت الجهم .

سمعنا كل ما يمكن أن يُسمع في مدياع السيارة التي كانت يد السائق تديره بين وشوشة مسيطرة إلى وشوشة مؤقتة والصوت يخفت كلما بعدنا واقتربنا من أرض الغربة ولما صدح غناء شادية انحضر في حية قلبي بعزج الأغنية ورنينها الرثائي والتفافها على حجرات القلب انبعاثها في ليالي إلتباس كف تربت على الكتف ودموع تبلل غصة الكأبة العصية وتعصر بكائي ثم تحفف بعنيفة الأحبة ما ارتسم من الألم .

اعتزيت رأس أمي وتفرق دمع الصديفة وانقلبت الأغنية إلى ضميري ، ها هو نداء الأغنية الهجدة التي تجر مع تكرارها أمسى وماضى وحزنى .
خذنى معاك يا إلى انت مسافر خذنى معاك .

آه آه

عند الحباب

خذنى معاك عند اللي غايب .

وحياتك يا ماشى

عدي ولا تنسا شى

حبيبي واح ولا جاشى

من سنين وأنا صابره

على الحنين مش قادره

ولأجل خاطره مسافره

وحياتك يا جارنا

يا مسافر لقمرنا

من يوم قرافة ديارنا

غابت لبعده القمره

بكيت عليه الشجرة

سألت عليه كم مرة

والله ان قلت أعدى

سبح بحور لأعدى

حتى إن بعدت ما هدى

عدي وخذنى معاك

خذنى لحبيبي هناك

لم تكن الكلمات معروفة لأذنى ولا مفهومة لقلبي لكن شتات الكلمات التم في الذكرى بمرور سنين وعبور زمن وبقي ذات النبط المرتعش للصوت المغنى وذات الوشوشة العالقة بالغناء من مدياع سيارة مبتعداً عن بث الوطن لأهل الوطن ، وكانت الأغنية تمسح الصحراء

بدموعها ودموع أمي ، وكانت الموسيقى ترش على الأرض ملح المزامم ، في الليل سمعت الحقيقة أشعة خفيفة المعنى ترسلها مصابيح السيارة وعمرة غارقة في الوجود وعيون أطفال ناسف لأول مرة وأمها تملن لخروجهن من الدار إلى النار وسائق بدون إطار سيارة احتياطي وحبيي راح .. ولا جاشي ، غمس السائق قلقة في حكاية الرجال الذين يهربون عن طريق السلك ويعبرون الحدود دون بطاقات هوية أو جوازات سفر ويعملون هناك حتى تضبطهم إدارة أو تفضحهم مشاجرة وافشاء للسر ، أظنني لم أنس أبداً مشهداً ملحاً لرجال يسكنون بأكفهم معلقين بسلك مثل سلك الكهرباء مفروود بين الأعمدة ويحركون أصابعهم لأهليلج وأجسادهم تتدلى مهتزة وجسدهم يمتعض بالحرق وحينها التقينا بقريب لنا هناك من رجال السلك دهشت لفصير قامة وكيف وصل إلى السلك العالي واحترمت فيه قوة عضلاته وصبر إرادته تتداخل صورة السلك لا تريد أن تغنى أبداً فقط معها بعض العفلات التي تسمح بأن أسلاك الحدود الشائكة كانت المقصودة واحترت لماذا لم أسأل أو أستفسر أي سلك هذا وأي رجال كانوا يصورهم مشردين مبهمين خائضين لو قائلين.

كانت البوابة كبيرة خضراء أو صفراء حديدية طويلة جداً مثبتة بين سورين في الضخامة ذاتها وفوقها لوحة كبيرة ولكنها غير لافتة للنظر ثم .. الصحراء .. فلا شيء ، تحجزه الجدران التي تنتهي بعد أمتار معدودة ثم نقضي الصحراء عمدة صفراء صخرية شاسعة والبوابة بحديدتها الغليظ

ونقشها القديم وأنين حركتها البطيئة تؤدي رداءها إلى صحراء أخرى أو الصحراء نفسها المقسومة .. هنا الحدود ، هؤلاء الواقفون عند أكشاك صغيرة متناثرة وراء البوابة بنصف كيلو متر تقريباً هم رجال الجمارك وصفوف طويلة من السيارات المزودة واقفة في انتظار التفتيش والعبور والحقائب كثيرة موضوعة فوق الشبكات الحديدية المنصوبة فوق أسطح السيارات ، الحقائب مستقيمة مثبتة مستقرة فوق سيارات ومهتزة مائلة فوق أخرى والسيارات ملتصقة وراء بعضها والأبواب مفتوحة لمزيد من التنفس الحر ، والأطفال بدأوا يتسللون إلى الأرض للعب والأمهات يخرجن أقدامهن المتعبة لإراحتهما على الأسفلت الضيق وبعض الخادومات يحملن أطفالاً صفراء على أذرعهن ويقضين بهم وقتاً ، والرجال يتحلقون في دوائر صغيرة غير منتظمة تسقط لحواز وتوقع لسؤال وفتح لجسور عن عناوين الذهب ومخلات الإقامة وتداخل لأصوات منبثة من موجات مختلفة ضبط عليها مؤشر مذياع كل سيارة ، ولكنها كلها على إذاعات مصر وغنائها والسائقون يعرفون بعضهم ويقضون أموراً ويشقون طرقاً ويصافحون ناساً ويسألون عن أسماء ويحببون عن أسماء ومعظمهم يرتدى جلابيب بيضاء والآخرون يلبسون بدلاً زرقاء .

وحين تتحرك سيارة في مقدمة الصف تدور أصابع في مفاتيح ويضع ناس أجسادهم في سيارات وتخلق أبواب وتصدر السيارات صوتها الأليف الضجيج ويبقى أباء ورجال خارج السيارات لأن المسافة جد قصيرة وسيأخذونها سيراً لكن الأطفال لا يفهمون ولا يعرفون فيتطلق

صراخهم ينادون الأب أو الأخ لمساعدتهم رغم عهدة الأم أو ضحك الأخت الكبرى على غيباء الصغار فيجرب أب لناذلة ابنه يلمس خده ويداعب أذنه ويطمئنه أنه يسير معه وأنه لن يتركه أبداً . تسرى شائعة في الصغوف تثبت أنهم يجمعون الطعام كله ما أحضرناه وجلبناه من الوطن ، منعاً للكوليرا ، وتغضب الأمهات وتعلن الزوجات رفضهن المطلق والحاسم والفاصل لتسليم الطعام وتبدأ الحوارات بين النوافذ ويفعلن فيخرجن إلى سيارات أخرى ويقفن أمام النوافذ بأنفسهن ويمسك الأطفال بأطراف ملابسهن .

- طيب والأطفال من أين يأكلون ؟

وتتذكر عائلة أحضرت طعاماً وفيراً ولحوماً كثيرة وأكلات مطبوخة وملوخية ناشفة وبامية معدة يقترح البعض أن يوزع طعامه على بقية السيارات والمسافرين أكثر لئلا ياكلوه بدلاً من الحرق ، لكن الاقتراح غير عملي فالجميع أحضر طعاماً وأولى بهم أكل طعام أمهاتهم وأسرههم من طعام الغرباء ، وتسمع واحدة كلمة حرق فتصعق .

- يا نهار أسود .. يحرقون الطعام .

- منعاً للكوليرا .. حقهم .

- حقهم ، لينكسر حقهم .

أمى حزينة كما تخلق الحزن تاماً في ليلة القدر (أو قبلها) هذا الطعام الذي استغرقت العائلة كلها في طبخه إحكام كل المنافذ حتى لا تفسده

الرحلة لأجل الوصول إلى الثلاثية أخيراً ، وهذه الروائح التي انبعثت من بيتنا وحفاوة تجهيز الطعام في علب وصوان وغلقه بأكياس بلاستيك وورق وتوصيات ذوى الخبرة وهذا الإنتظار الاثير كى يأكل أبى عما صنعنا له ، كل هذا سيضيع ودموع كثيرة شاركت دموع صديقتها وجيران السيارات .

ارتفع لهب في جانب الصحراء ، لقد بدأوا فعلاً إحراق الطعام وكان الناس ينسلون إلى مكان الحريق فيضعون أكياساً كثيرة كبيرة بجوارها مبتعدة عن المساس بالنار ويعودون انقاذاً للطعام من أيدي رجال الجمارك وعسكر الحراسة ونار الحريق .

وخرجت من سيارة شابة جميلة زاهية ممسكة بعلبة كبيرة من الكرتون بها كحك مغموس بالسكر الناعم وتصل إلى كل سيارة فتعدها يدها إليهم بكحكة وتقول :

- كحك فرحى لايفكس يتحرق والنبي كلوه .

فتبارك لها النسوة والرجال ويتضاحكهن ويطلب منها الأطفال كحكاً إضافياً وتفرج إبتسامة العروس وهي تشير إلى عريسها الذي يسافر معها في رحلة ما بعد أيام الزواج الأولى فيأتيها بعلبة أخرى وتضحك جداً حين تحييها امرأة مسافرة بزغردة عالية مجلجلة بينما يسأل أحدهم العريس عن قرينه ومحافظته واسم مدرسته والمكان الذي سيذهب له في الغربة .

ارتفع لسان الحريق ولهبه وبدأ السائق في عودته إلى سيارتنا بعد أن أخذ طعامنا وسلمه هناك .

دارت أمي الدفعة .

وغفوت نائماً لا أدري ماذا حدث بعد سقوط الدفعة على حجر أمي فقط تحركت السيارة وورأينا في ظلمة جديدة . تطأني أمي بالقبضة وهرج نحجول في السيارة ، فقد وصلنا إلى أبي ، ساحة معتمة ونور منطفئ وهواء يستعظم بعد نعاس وأسوار طويلة وأبواب من الحديد والصفيح ضخمة كأنها أبواب غزن كبير أو مصنع مهجور والسائق يستهفهم من أمي العنوان محمداً ، والصدفة تدخل بإدعاء دفقة مؤكدة ويندحرج الأطفال على المقاعد ويحترط القلوب واتساع العيون على آخره ، يستنطق الظلمة العمياء وتبحث أضواء السيارة هنا وهناك فلا يرى سوى الأسوار والساحة وصمتاً ملتزماً لكن صيحة أمي تصرخ بالفرحة أصابعها تشير إلى زاوية ما .

.. أهم في انتظارنا « نعم .. هم » أه أبوكم يا أولاد ...

وتتوقف السيارة ويجري نحونا والدي وصديقه وتشتبك الكلمات الحارة ويرفعني أبي إلى عنقه ويقبلني جداً ويمسك بأختي فرحاً ، ويداعب الصغيرة في دفء رائع وبرقة رعب ووحشة يقول لأمي :

.. حمد الله على السلامة .. نورتهم .

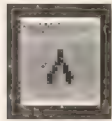
كان البواب مع العائلة كلها يحمل الحقائب والأشياء إلى الطابق الرابع حيث شقتنا وكنت الآن وحدي أمسك «جركل» من الماء صاعداً من مدخل البناية إلى درجات السلم مستغنياً المكان ومرتباً من الأزمنة الجديدة التي تشق الخاضرة وتعجب الأجيال المألوفين (وليس كل مألوف محبوب لكن كل محبوب أليف) دمعني التي سقطت على درج السلم كانت مفتوح غربة طويلة لم تنته حين صرت أمام باب شقة فلتته بابنا ولجت فاندعشت من صمت الشقة وهدهد الفرفر المفلقة وكنت قد تركتها صخبية وحركة وصباحاً ووجوهاً أعرفها ، سرت في روضة وداخلني الفراغ كانت الأضواء بخيلة والصور المعلقة صبيحة فأقتربت من باب غرفة دفعته فالتفت عن جماعة من الأجانب ذوي الوجوه الحمراء والشعر الصفراء يجلسون في دائرة على الأرض المفروشة بالسجاد يلعبون الورق أصابني رعب جم ومفاجأة تدعو للشلل ، والتفتوا إلى هذا الطفل المدحور متسائلين بلكنة غريبة ، لمحت ورقة الجوكر في يد أحدهم ، مفرغة كرسم الشيطان غريبة كرائحة أساطير الحواديت تركت «الجركل» البلاستيكي الأصفر ناسياً وعدوت خارج الشقة أقفز السلام مترنحاً ومخنوقاً قابلتي أكف لينة دافئة مست صدمتي تستهلي ، كانت عيون أبي المنقلة .

هبط من السيارة .. وسط صيحات العائلة كلها أمام بوابة البيت وفي الشرفة الطويلة عانت أخوالاً واقفين وابن عمي وأخي الصغير وحين

وصل إلى أرميت في حضنه .. وكانت المرة الأولى التي استقبل عودة أبي
بدموع ساحقة وارتجاج رجل منهارة وتثبت بحضنه ثم قد بللت كتفيه
وأودعت في صدره الألم .

.. مالك يا ابني .. لا .. هناك شيء .. لا عليك .. لا عليك ..

وكانت العائلة كلها مندهشة ، والسائق الذي دخل إلى البيت
ليغتسل سريعاً ليكمل رحلة العودة قد صدمه حشد كبير وبكاء شاب .
ثم مضى كل شيء كما كان متظراً .



الموت

جاء إبراهيم .. ليذهب إبراهيم

كل شيء - مهياً - لنهايات ، طعم البيوت رائحة الشارع ، لون الهواء
القاهر بين الجروح ، وكنا جميعاً نفضل أنها النهاية ، آمنتين في جوف
الطمأنينة ، عاكفين على أشياءنا المسافرة في دمتنا .

التفتت به خارجاً من ردة بيتنا نحو باب الخروج ، إقترت منه
متعجلاً وعائته .

- هل تمشي دون أن تسلم على ؟

وجاء صوته كأنه من خلف حجاب ، يرانى من وراء شراعة نافذة
أخرى مطلة على حياتين أولى وأخيرة ، صوته أنشوش وتجاهيده
تكاثر ووجهه الحاسم المستقيم الأبيض يعمرية الجبهة وبينية
الذراحين ، أسنانه الصناعية المتظمة وشعره المدهش بقماته المديدة
وشعره هذا الجسد العسكري القديم وشعره الناعم الخفيف الأبيض
تدأريه قلنسوة الجمجاء ، ينهى نسيانته لى .

- أبداً ... أبداً ...

ثم يخطو برجليه بطيئاً - هذه المرة - وخلقه أبى - كالعادة - يودعه حتى الباب .

- مع السلامة يا عم الحاج .

وكننت خلفها ألقى تحيتى قبل الرجوع .

- مع السلامة يا جدى حجاج .

ومع ذلك لم يكن جدى ، وعبت على موت جدى لوالدى ، لم يتبق منهما فى ذاكرتى أى شىء فوالد أبى مات قبل أن أولد وجدى لأبى - من سميت على أسمه - مات بعد ستة أشهر من ولادتى وكان أول ما وضعونى على حجره أدرك ارتحالاه ، فقد جاء إبراهيم ليذهب إبراهيم ، ولم يتبق منهما سوى الصور وشارات الخدود والذكريات التى باتت بعد فترة مكررة محفوظة رغم دفنتها وحرارة الحكاية المستولدة من حشا الانتهاء ، والملامح - فى ذهنى - ليست سوى الصور المثبتة تحمل بدورها ذات الخطوط على جبهة أبى ونفس تربية وجه أبى وقبعة جدى العسكرية ، الصورة ذاتها يعلقها جدى حجاج لنفسه أيام رفقته فى الجيش لجدى لأبى ، كانا معاً ضباط صف والقبعات العسكرية والحزم البادى والغربة عن البيوت أياماً ثم هجرة جدى ذات مرة - أخيرة - فى سيارة جيب عسكرية مهرولة توقفت أمام الباب الخشبي الصغير وأصاب الشارع فزع خاص ، خرجت على أثره أودية الجنود من السيارة تفرج الباب وتدخل جهة مقبلة ، وعرفوا كلهم أن جدى مات ،

وانطلقت صرخات مشروخة وولولة ونحيب كاسر والتحام فى الأجساد المتكالبية وسعى نحو معرفة الأقارب فى القرية ووجه أبى بصياها الغامر وشبابه الألقى تغطيه الدموع فتحمر خدودها فوق بياض يدفع الحمة للنائق وأنفها مبلول باليكاء وعيونها احمرت وأدمت وجسدها غار وصوتها غار ونطقها بطء وثمر أصابعها فى المسافات المزدهمة باحثة عن وجه أبيها المسافر ، وتلفظ كبرياءها العالى منهارة وهى تلثم طرف كتفه العارى المسجى المندى بالغسل وأغرق السواد المكان ، كطيف يظهر ملتصقاً فى إكتحاله ثم يغرس وجوده فى الكائنات كلها ، وصديق مشواره وسفر رحلته المنظمة ورفيق سلاحه العم حجاج يأخذ بالأيدى ويشد العزم ويتقبل العزاء ويتم على إجراءات الدفن ويسلم على الصحاب ويحنن على أبناء الفقيد أن يصبحوا رجالاً ويكفوا عن العويل وتخفص أبى رأسها وهى تتذكر مع العم حجاج فى شرفة منزلنا صباح الجمعة قبل الصلاة ، حيث يأتى لنا ذاتياً كعادة لم تنقطع حتى قبيل وفاته ويعيد سفر أبى ، حضوره الشمس فى صباح الجمعة يضع المقعد فى اتجاه الطواء القادم واضعاً - فى الشتاء كوفيه خضراء - حول رقبتة وقبعة صوفية محكمة التطريز ويسك بصحيفة الأهرام التى يعطيها إياه أبى بمجرد جلوسه بعد أن ينادينا :

- أين الأهرام لجدكم حجاج يا أولاد .

ثم نقدم له كوب الشاي الكبير الساخن ، يركته على إقريز الشرفة ويمل عيونه بالصحيفة ، ويتسائل حول حقيقة الأخبار والسياسة

ويشكك في أية تصريحات إقتصادية ويخلق في الشارع الطويل الذي كان
- ولا يزال - يملك نصف بيوته ، فرغ جدى حجاج منذ زمن طويل من
الجيش وأعبائه لغنى عائلته قيص له أرضاً ومالاً جعلته عمدة وسيداً في
هذه المنطقة التي نحيا فيها منذ أربعين عاماً فقد أمتلك نصف بيوت
الشارع كله حيث كنا نعب أنا وأمى في اتجاهنا لمشوار ما ، فتشير لى على
بيت صار الآن بناية ضخمة وتقول :

- هذا البيت بيت جدك حجاج ، الأرض أرضه وكان يؤجر لأصحابه
المزول باثنين جنيه ، الآن صاروا أغنياء بعد عودة إبنهم من السعودية ،
عرضوا على جدك شراء البيت فاشتروه .

جدى حجاج كان يشعر أن الأرض تتسحب من تحت أقدامه حين
كثر المال في الأبدى واستحوذ الجميع على البيوت بوضع يدهم وتوقفهم
أحياناً عن دفع الإيجار ، وفي أحيان أخرى كانوا ينفذون بالبيت ما يرونه
دون إستشارته ولما حاول أن يلجأ للقضاء لم ينصحه من تعطل الخطوات
وتعثر الملفات وتشابك الشهود ، فأعلن شكه في القضاء كله ، وصار
كلامه خليطاً من لعن الزمن الذي جعل الأنصاف تقوم (يقصد أنصاف
الطوبى) والقوالب تنام ، وتمر نظرائه كثيرة حزينة على بيوته تتجاوز
العشرة في الشارع فإذا بها كلها لم تعد ملكه عملياً ويسأل ساعتها عن
رحيل أولاده ، أبناء جدى حجاج كثيرون ويسرى فيهم الخير ، فقد ارتحل
معظمهم إلى دول عربية واستقروا سنيناً طويلة جسرهم الوحيد كان
الصور والخطابات وأجازات آخر العام وزيارة ألقائهم إليه بعد

الإمتحانات وكان كثير الكلام عنهم مذكراً بفضائلهم ، مجيئاً على أسئلة
أمى عن أحوالهم ، فهم أصدقاء حتى القربة ، مختلطين بدمنا جميعاً ،
الكبار مع الكبار والأجيال التالية كلها تشربت المودة والحب والسفر .

اعتصم السفر وحيق كل شيء وأخذ من دمنا أكياساً من النيسط
والراحة وأغفل أعبائها لكن بقى جدى حجاج حاكياً عن أبنائه
المسافرين وعن أبنائه المتزوجين وعن أحوالهم وكانت البيوت الطينية
الأخرى التي امتلكها تسقط تحت أثر الزمن ، فدفعه رخاء الحال إلى دعوة
الأولاد للبناء فبنوا جميعاً وبنوا وعادت عبارات جدى حجاج إلى الوجود
المضاحك الثرى ، وأسكن الأولاد كلهم طوابق في العمارات الحديثة ،
لكنهم بدلوا جهداً خرافياً كى يخرج من بيت العائلة القديم ، هذا المنزل
الواسع الرحب ينتهى « بطلمه » ماء غريبة حولها أسوار حجرية تقودنا
إلى حديقة خضرة طازجة وسلام مؤدية إلى سطح وخضوت وعنمة ملقاة
على الحجرات والردهات ولاشئ « بين سوى أطراف الأثاث وأطر الصور
الفوتوغرافية (صورة جدى في لباسه العسكري واللون باهت مسحق)
الطريق سالكة للإكتئاب وأنا أعدو في الصالة نحوه قادماً من الحديقة
أخبره عن حاجة مال عاجل حتى يعود أبى من العمل أو لإستكمال مبلغ
كبير مغالوب ، وعصره ما قال لا أبداً جدى حجاج ، المنقذ من أية أزمة
ترى لنفسها أن تلوح أمامنا ، كان أول شيء ينهض برأسه أمام الأزمة هي
ذات الجمعة - روح لجدك حجاج بسرعة .

والطريق ، إليه عبوراً في هرولة لدقائق لا تعد ولا تحسب ثم الدخول إلى

عتبة الباب والعتمة الخافتة التابعة من الداخل وظهور زوجته المسنة التي
أهتف لها « نينة » تشير لي على مكانه في مدخل الحديقة أضافه بكفى
الصغيرة وأصل إليه برسالتى خافتة دون أى تحجل .

يتركنى وبلج إلى غرفة معتمة أيضاً ، بعض الأضواء الناعمة منقطعة
المصدر تترك بصماتها على الأبواب ثم يخرج بورقه النقدي ويدسه في يدي
فأعدو إلى أمى ، حتى عندما نجح أولاده في إقناعه بترك البيت القديم ،
حيث تمنع ورفض وشاركته زوجته حوارات طويلة وصخب كيف لها أن
يخرجها بعد عمر طويل جداً من البيت كيف لاكتفهم وطيات جذوعهم
وأثار أقدامهم أن تتعلم حباً جديداً وتتعود إحساساً طازجاً وأعد الأبناء
الطابق الأول في عمارة قريبة للبيت القديم وجهازه . ثم انتظروا الإقناع
وبعد لآى وزمن ، جاء جدى إلى شرفة صباح الجمعة وتناول الشاي
الساخن وحرك قدمه يميناً في جلسته المستريحة وابتم في ضحكة
منتظمة فيها روح المهمة وطوى الصحيفة ثم اشتكى من غم عائلى ،
يقابل بإبتسامة وضحكة أبى كيف لهذه العشرة الطويلة أن تُعكر
بمشاجرة بعد كل هؤلاء الأبناء وهذه الأعمار ؟ لكن غضبهما - ساعات -
كان يمتد إلى الهجر وتجنب الحديث والمقارقة في الطعام ، أباح جدى
أخيراً فيما يشبه خجل التراجع أنه انتقل إلى البيت الجديد وحتى في
البيت الجديد كانت ذات العتمة الخفيفة والروائح القديمة البائنة وهو
يدخل من رصيف الشارع حيث يجلس دائماً (ولابد) على مقعد خشبي
بعشنته على حجره ورجلاً فوق رجل تحت جلبابه الأبيض وتعتنه في

الوجوه وتأمل في الحياة ورد نحيات وتلويح بكف في جلسة إشتهر بها
وأحببتها جداً حين كنت أمر عليه وألقى التحية فبرد طيبياً حتى يستفيق
إلى أنه أنا فيلهج بالتحية ويؤكد عليها ويبت فيها حرارته .

نفس الحرارة التي كنت أراه فيها داخلاً إلى ردهة منزلنا في دعوتنا له
على الإفطار في رمضان كعادتنا كل عام حتى سافر أبى وغاب عن
رمضاننا ، فانسحبت الدعوات وجلة ، رجياً وصافياً عميقاً في فدومه
نحو المائدة ، وجلسه في مكان الصدارة ، مذاعبة أبى له وإمعانه في
الحب وأمى تسأله عن مشروب يفضل بين مشروبين وأختى تطلب منه
رأيه في طعام طهته بنفسها وأمى تضع قطع اللحم والفراخ والحمام كلها
في طبقه فيفرغ من كثرة منابه ، فيلع أبى على أن يأكله كله فيطلب ألا
يأكل إذن سوى اللحم ، فنضحك وقيامه عن المائدة وهو شاكر ماذج
للطعام وأهله - هذا خير قوى ، حلو قوى ، حاجة عظيمة خالص .

وكان دائماً يعلن على الملأ أنه لا يفضل سوى طعام أمى ولا يحب
سوى أكلها وكانت بمثابة إبنه الكبيرى شقيقة إبنه الكبير الذى حين
يزورنا مع عائلته الجميلة يتبادل مع أبى وأمى ذكريات قديمة ثم يخص
أمى (أخته) بالذكريات البعيدة وسط ضحك وإستغراق وتحركات
الأطفال وصبية يعدون أمامهم كأنه قفز الزمن وسعى الأيام اللاهث
واللاهثة ، يوم دخل علينا جدى حجاج ونحن نجيب على هاتف أبى
من غرته كانت فرحة مزدهرة مزعززة فينا جميعاً ، حيث تناول الهاتف
وتحدث فيما فاض علينا دموعاً ، كانت الكلمات قليلة ووناسة لاهثة

ومعبرة متكررة وعذبة وكان سؤاله دوماً عن حال أبي وما فعل وما حصل ولقاؤه الخاص به حين عودته حفاوة الأكتاف بالأكتاف والحناق الدافئة المحتللة والضرب الوديع على الظهرين ، غياب وجه أبي في عنقه ودخولها إلى الحديقة برعيان أخبارهما وحكايتهما الثيلة ، جدى شاهد على غريبي أبي عشر أعوام وأكثر مرت منذ غربته الأولى وحين سافر أبي مرة أخرى كان يخشى في كل مرة أن يرجع فإذا جدى حجاج قد انسحب من الوجود وكانت أمي حين يشتد مرض على جدى ، تضع كفها على قلبها مخافة أن تحدث كارثة الوفاة وأبي بعيد ، لا أحد يعرف ماذا سيحل به لو جاء الخبر في هاتف أو خطاب لكن إخلاصهما للصدقة والبنة المدهشة جعلت وفاته أثناء وجود أبي بل وفي الأيام التي عاد فيها كل أبنائه من الخارج وحين اكتملت الأسرة كلها .. مات .

كان متدهشاً متسغرباً من هذه الحقيفة التي أحضرها أختي أول دراستها بالطب وضعتها تحت السرير ثم كانت قصة فادحة في البيت كله انتشرت أطرافها وردداتها في مواقع العائلة ، أختي جلبت رجلاً إلى البيت ، رجلاً ميتاً عظام الريميم لشئون دراستها لا حول ولا قوة إلا بالله ، تخاف البعض وضحك البعض ، لكن جدى حجاج - لمحا وعطفاً - كان غاضباً ، الإحساس بأن النهاية يجوز أن تلقى في كيس بلاستيك كبير داخل علبة كرتونية أمر مفرح وبناء جسر من التواصل مع هذا الميت على إعتبار أن له أهلاً وعائلة ويشراً يسألون عنه ويقرأون لدى قبره الفاتحة ، جعله يفضب ويشيح بوجهه لحظة تذكارتنا لهذه القصة ورياً شاركه أبي

نفس المشاعر فقد قرأ للعظام الفاتحة وآثر ألا يراها ورنث في عيونه نظرات أسي وقد وشعور برهن النفس وهوان الدنيا .

وتلك ذات النظرات التي تضاخمت وملأت وجود الهواء لما رأيت جدى حجاج للسرة الأخيرة ، هذا الشحوب الرهيف ، الإنسحاب الأمن ، السكون المتضرر ، النظرة المتاملة الشاردة ، الغربة عن المكان ، نومة العقل وذهاب الذهن إلى مخلوقات أخرى وهذا البطء في السير المتمهل في الأنفاس ، الإرتجاف في الرموش ، الإمتزاز الدقيق في الأصابع حول الكرب ، الغرق في الصمت وضع الكف على الفخذ والحكى من أشياء مضفت حكايا ولما جلس مع أمي تنقن الأرض في مربع تحت شمس الجنيحة ألقى الصحيفة جانباً (أو ربما لم تكن موجودة) وتوجعت أوراق الشجر أمامه واندفقت زهور الليمون على الأرض الطينية وإندهست تحت الأقدام قال لأمي ، حكى لها كيف يشعر بهذا الألم المعاصر لأمهات كيف تسير مشاير ذات أسنة حادة قاسية وتقطع أمعاءهم من رجولته وتدغدغ بطنه ويصبح المأ لا يطاق يضجر جسده الكبير .

- خلاص عجرتنا وزاح العمر والعالية .

- لا تقل هذا يا عم حجاج ربنا سيحدها بإذن الله وسترجع لصحتك اللهم يا كريم .

وترفع يدها إلى السماء فيرفع نظراته مع حركة يدها لكنه يثبت عند عينها ويستند بعرقه على مقدمة فخذه ويقول لها :

- عارفه من أين جئت الآن ؟

في لحظة

- خير يا عم الحاج .

يهز رأسه في تردد وحزن مقترن .

- من المقابر .

تضرب أمي صدرها .

- خير .

كان الوقت يداعب الصباح لعله يبين كاملاً ، وأصواء النهار محبوسة
وروائح المقابر المغسولة بالفتاء وهذا الصغار العجيب الذي يجتهد في
كل الأسوار والأبنية ، اقترب جدى حجاج من الثرى وسارا معاً في
خطوات وثيدة متوجة حتى باب المقبرة التي بناها للعائلة منذ عشرين
عاماً ، طلب منه أن يفتح بوابتها الحديدية الصغيرة ثم يزيح الطوب عنها
والأثرية (مقهورة بتدى الصباح) والرجل يعمل في حماس وهمة المجاملة
يبعده جدى عن باب المقبرة ، ثم يذلف إليها وحده ، المكان ممشم وقاتم
والهواء شحيح وثقيل والزوايا بعيدة والسقف قصير القامة واطىء حتى
الإنحناء ، كان الثرى قد لحق به فأمره في لحظة حازمة أن يفرش الثرى
الأصفر الناعم على مكان نوم الجثمان ، إنحنى الرجل وأخذ يضرب بكفه
وأصابعه الغليظة على التراب حتى سواه وجعله وسادة مناسبة ، ألح عليه

جدى أن يخرج ثم تحول بنظراته في أرجاء المقبرة مد أصابعه وخلع حذاءه
وضعه إلى زاوية هناك ، ثم عاد فأقرب من الثرى المفروش نزل بركبتيه ثم
استند بكفيه ثم فرد قامته نائماً على الثرى موجه رأسه للمقبلة بعدما
ارتبك بحثاً عن استقرار لتوجيه وضع ذراعيه جانبه ونظر في السقف
وتنفس في هدوء وانتظام وأطمئن على أنه هكذا سينام حين موته، عندما
حاول النهوض كان جسده مخدراً وقلبه مكتئباً وصدره مزدحماً بالحزن
وعيون غائمة تماماً عن الرؤية وأصابعه مرثغة وكفاه متدليين وهذا
الجبروت العظيم والحنان الفيضاني قد رقى ونحل واخترقه نصل المرض
يمخر بطنه ، هبط إليه فجأة الثرى وأمسك بيده فاستند على كتفه
وصعد من المقبرة حيث شم هواء مفتوحاً والشمس كانت قد بان
وتوجه ينفض عنه التراب خارج المقابر وصورة المقبرة ، النومة والرقدة
وارتجاف القلب صورة وحيدة تحمل عيونه .

ها هو الموت ، أخيراً يخرج من كسبي والفصص المؤنفة والأحزان
المزيلة ويقفز من حلق السماء إلى رأسى ، مواجهتى الأولى معه ، لم يتزع
أحداً من شرفة منزلنا أبداً ، كل ما جرى سبقاً ، كان محض التهابات في
القلب الصغير مرعان ما يمضى فوقها مرهم للحريق والتسلخات
فتسهيء لكن - الآن - يأتينى حتى شرفة المنزل ، أخذ جدى حجاج ثم
جلس مكانه على المقعد الخشبي وألقى بجريدة الأهرام وثمطى وضحك
وضرب ظهرى بكفه .

- ها يا حلو ماذا استفعل ؟ لماذا لم تبك يا نذل ؟

ثم يمسك كوب الشاي ويمضغ زجاجة - كم صوروا الموت وديماً
وأمناً مثلاً لكنه ليس كذلك - أليس كذلك !

خطفوا آخر ما تبقى من فرح مقاوم داخل صدرى لم تعد إلا حزاني
من السفر أو الموت أو الإنكسار العاطفى فى ميدان التحرير ، تركنا
جدى حجاج الأثر الوحيد الباقي على أن هناك شيئاً يمكن أن يبقى ،
مات والغريب أننى تلقيت هائفاً يقول خالى فيه .. تماسك .. جددك
حجاج تعيش أنت ، لم تهتز الساعة فى يدى ولم أبك ولم ترتجف عيوني
ولم أصمت ولم أتوقف عن الكلام والمناقشات فى المجلة ، ولم أقل لأحد
أن جدى حجاج مات هل يعرفونه ؟

هل سيفقدون ؟ هل يفهمون ؟ ولكن زلزلاً مريعاً كان يطيح بكل
شئ ، كل شئ ، كان يحطم الجدران والحوائط والمقاعد والمكاتب
والرياح والشوارع والنباتات والوجوه وكان كل شئ سافلاً وابن كلب
لأنه يحيا بعد جدى حجاج ، وكهرت الدنيا كما لم أكرهها من قبل ، هذه
السهولة التى يفر بها جدى من الحياة ، هذه البساطة فى الكلمات ، مات ،
هذا الهدوء الظاهرى الذى أضاف به الأصدقاء ، كيف نحيا بعد أن
يموت الآخرون كيف نستمر بينما توقفوا سكوتوا انتهوا ، ولدت فؤادى
وانكسبت على جروحي المفتوحة تنفسى ويلقى فيها الحامض الكاوى
وسيارة أجرة تنقلنى إلى مدينتى ، وأدخل البيت وأسلم وألقى حضور
أمى بجلبابها الأسود وعيونها الباكية من عند بيت جدى حجاج ، وأبى
مكث طويلاً يحفف دموعه وأخوانى امهرن وأخوالى جاء أحدهم من

مدينة مايو بمجرد معرفته بالخبر وكان أول الهابطين من السيارة المصاحبة
للجنان ، وتوافدوا كلهم من بيوتهم ومشاعلهم والتفوا مع أبناء جدى
حجاج الذين وفدوا إلى الحزن كافة ، تماسك أحدهم يبدو بطولياً وهو
يسبق حضور الجنان من القاهرة حيث المستشفى الذى مضى بها يومين
قبل وفاته ، تأكيده على إحضار اللحوم والطعام للعشرات القادمين ،
ولتمام شراء الخبز والإتفاق مع محل الفراشة والإطمئنان على قدوم أهم
المقربين فى المحافظة ، انتصاب السراىق للعزاء ضحياً وواسعاً على
الشوارع كله والأضواء الباهرة تغمره وتفضح هذا القماش الأحمر القانى
المنقوش بالبنى الفاتح والأخضر المستور الذى تتكون منه كل السراىقات
قريباً يشبه القانون ، فتاجين القهوة ومقاعد الخشب ذات الأقراص
الخضراء المبطنة واسم المحل منقوشاً على ظهرها ، نفس فراشة الأفراح ،
ذات المقاعد المئات يتوافدون على السراىق للعزاء ، الأشقاء جميعاً
يقفون فى المقدمة يصافحون منكسى الرؤوس محدقى العيون ، وأبى فى
إمتقاع المزائم ، أخوالى فى لحظات إثبات الرجولة والقرآن فى صوت عال
يملا الشوارع كلها ، يعلن أنها آيات رحيل جدى حجاج .

البيت - نفس الشقة التى رفض أن يأتى لها قبلاً - أضيئت بأنوار
باهته وأفرشت بمقاعد خشبية وفى حجرة داخلية كان الباب موصداً
على نساء باكيات بالسواد وكنا نجلس على المقاعد فى الصالة بينما
المقربون الستة الذين يتناوبون تلاوة أجزاء القرآن يجلسون فى استرخاء
على الأرض فى انتظار طعام العشاء فى لحظات المغيب ، وحين أفرشت

أمامهم الأطعمة واللحوم خرجوا بعد دقائق نحو الحوض لغسل الأكف
يقود أحدهم شيخاً كفيفاً وإبتسامات خفيفة على الشفاه ، آفة التعود نحوم
على أحداقهم وفوق جباهم والجالسون قد انتهوا في ذكرى خميس جدى
حجاج ، من الحزن الفاضح وتخلق الشيوخ يدخنون السجائر وقد أغرق
حريق الدخان أصابع الشيخ الكفيف فاهتزت يده ، وتحركت نحو
المطفأة وسقط الدخان في المسافة نحوها .

وكان آخر يسحب من حنجرتة صوت التلاوة وكنت بهجوار أبى ،
الذى يهز رأسه مفكراً فى الآيات ثم يعمل على ويسألنى مختبراً حفاظى
على قدرتى فى القواعد النحوية .

- هل تعرف إعراب هذه الكلمة ؟

فأبتسم وأخبرها ، فبهز رأسه فى إعتزاز ثم يسلم نفسه للقرآن وتلاوته .
ووجوه أبناء جدى تتبادل أحاديثاً حول تفاصيل كثيرة وحين جاء
الليل الكثيب ونامت العائلة كلها إلاى وأخت تتابع مذاكرة ما ، دق
جرس الباب هرعنا نحوه كان ابن جدى حجاج الأكبر وأسرته الصغيرة
قد جاءوا لتوديعنا قبل عودتهم إلى القاهرة ودخلوا جميعاً مرتدين سواد
الحداد وكان أبى قد استيقظ وأمنى من النوم وأسرعاً إلى الصلاة حيث
جلسوا على الأرائك صامتين ثم متكلمين عن الجد والجلال الرهيب
بيننا .

وحين مضوا دخلنا جميعاً إلى فراشنا وحين تقلبت على السرير وحدى

أدركت - وحدى - كم أنها غريبة الحياة .. وتمنيت أن أموت الآن .. مالى
لا أموت الآن .. وظهر أخوالى وأبنائهم جميعاً يملأون الغرفة وحضرت
أمى مع أبى إلى السرير وتشارك أخواتى وأخى الصغير فى المساحات
الفارغة وافتتح الباب عن الصالة المعبأة بالوجوه القادمة من القاهرة
(قاهرتى) .

ثم انتشرت فى البيت كله طيور بيضاء وخضراء عصفت بأجنحتها
وأصواتها المختلطة ثم انكشف السقف عن السماء ثم تحللت الجدران
عن الحوائط وأسفرت عن وجودنا فى صحراء صفراء شاسعة ثم غنى
صوت عميق بعيد فأخفت الريح صوته لكنه جاء نحيلاً حتى أذنى
وسمعتها تهز رأسها بالغناء لكن لم أستبين معالم الأغنية فقد صحوت على
وجهها الجميل فى وجدانى ثم ظهر صوت أختى جليلاً قادماً من الصالة
وقد وضعت الإفطار على المائدة تقول لأمى :

- بالتأكيد سيكتب قصة عن جدى حجاج .

ثم دخلت على الغرفة وتنادى كأنها تعرف يقظتى

- أبوه يا خوى ما كل حاجة بتكتبها عندك فى روايات .

انتهت

إبراهيم - ٢٧ مايو ١٩٩١ - قويسنا - القاهرة

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

الهيئة العامة للكتاب، القاهرة

١٩٨٥ - ١٩٨٦

مجلد اول
تأليف: د. محمد عبد الله بن عبد الوهاب

رقم الايداع بدار الكتب ٧٦٨٢ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977 - 01 - 5259 - 5

■ إبراهيم عيسى

- مواليد ١٩٦٥.

- خريج إعلام قسم صحافة.

- صدر له من روايات وقصص «المحبوبة»
«العراقة»، «مريم التجلى الأخير»، «صار بعيداً»،
«صباح النهايات»، «وجه بعيد لامرأة بعيدة»، «دم
الحسين».

- له عدة مؤلفات وكتب سياسية فكرية، يدور
محورها حول التطرف الديني في مصر الجنود
والأسباب.

- يشغل حالياً منصب رئيس تحرير جريدة
الدستور الأسبوعية.

مكتبة الأسرة



بمبادرة
بمناسبة

مهرجان القرعة الرابع ١٩٩٧

www.liilas.com

florist

مطابع

الهيئة المصرية العامة للكتاب